التشكيل المعرفيّ في كتاب (حقيقة المجاز إلى الحجاز) للصفديّ (ت٧٦٤هـ)

أ.د. هناء سبيناتي(*)

ملخص البحث

يقدّم هذا البحث قراءةً لنصّ رِحليّ هو كتاب (حقيقة المجاز إلى الحجاز) لصلاح الدين الصفديّ (ت٧٦٤هـ)، معبّرًا عن رحلته إلى الديار الحجازيّة المقدّسة، لأداء فريضة الحجّ التي تاقت روحه إليها على مدى العمر كلّه. وقد اخترتُ رحلته هذه لأنّها منجزٌ إبداعيّ، كُتبَ في رحلة التشوّق والتلهّف إلى زيارة البيت العتيق، وهو ما أضفى عليها حرارة التجربة الصادقة؛ فكشفتُ عن ذخائرها الثقافيّة، وحقولها المعرفيّة التي غلبتْ عليها المعرفة الدينيّة، فالمقصدُ من هذه الرحلة دينيّ، وطابع العصر العام هو التديّن، فكانت الآيات القرآنيّة والأحاديث الشريفة وقصص السيرة النبويّة منثورة في الرحلة من البدء إلى الختام، وبلغ إبداعه الذروة في استحضار معارفه الأدبيّة، واستدعاء رجال الأدب والفنّ والتاريخ. ولعلّ

(*) مدرّسة الأدب المملوكي والعثماني قسم اللغة العربية.
ورد إلى المجمع بتاريخ: ١٦/ ٤/ ٢٠٢٥م.

أروع جانب في تصوير الرحلة هو أنّ الصفديّ أخذنا معه من دمشق إلى شرق الأردن إلى الجزيرة العربيّة وصولًا إلى مشارف المدينة المنوّرة، وهو يرسم لنا طريق الرحلة اللاحب: الهضاب التي صعدوها، والقفار التي عبروها، والمدن التي تزوّدوا منها في رحلة استغرقت معهم أشهرًا ثلاثة؛ فضلًا عمّا رصدتُه في هذا النصّ الرحليّ من معارف لغويّة وتاريخيّة إلى غير ذلك من الومضات الفلكيّة والفلسفيّة والرياضيّة والفنّيّة.

كلماتٌ مفاتيح: التشكيل المعرفيّ، الصفديّ، المجاز، الحجاز.

Cognitive Formation in Travel Literature:

The Journey of ʔsˁsˁafadi: to the Hijaz as a Case Study, died (764 AH)

hana:ʔ sbe:na:ti:

Professor

Damascus University, Syria

Abstract

This research presents a descriptive analysis reading of the travel narrative book "The Reality of passing to the Sacred Lands" by sˁala:ħ ʔddi:n ʔsˁsˁafadi:, died in (764 AH), who is one of the most prominent literary and scholarly figures of the eighth century AH.

ʔsˁsˁafadi: excelled in expression, both in poetry and prose, conveying his journey to the holy lands of Hijaz to perform the pilgrimage, a longing his soul cherished throughout his life.

I have chosen this journey for study because it represents a creative achievement, written during a period of yearning and anticipation for visiting the revered Kaaba, which imbued the text with the warmth of genuine experience. I delved into the treasures of its cultural riches and its fields of knowledge, predominantly characterized by religious knowledge. The purpose of this journey is religious, and the overarching theme of the era is piety; thus, verses from the Quran, noble hadiths, and stories from the prophetic biography are interspersed throughout the narrative from beginning to end. His creativity reaches its zenith in his evocation of literary knowledge and the invocation of figures from literature and art.

Keywords: Travel literature, cognitive formation, ʔsˁsˁafadi:, holy lands.

مشكلة البحث وأسئلته:

- هذه الرحلة مثال قيّم لأدب الرِّحَل العربيّ، الذي لم يحظَ بحقّه من الاهتمام والدراسة.
- هذه الرحلة حُقِّقَ نَصُّها منذ عامين، وليس هناك دراسات سابقة عنها.

ويُثير البحث التساؤلات الآتية:

- ما منظومة العلوم والمعارف الواردة في الرحلة؟
- هل تحمل هذه العلوم سمات عصرها؟ وهل هي غنيّة وقادرة على تلبية الحاجة المعرفيّة لإنسان عصرها؟
- ما مصادر العلوم والمعارف التي نثرتها قريحة الصفدي؟
- هل يستطيع المتلقّي المعاصر أن يستشفّ من خلال هذه الرحلة حياة الإنسان في القرن الثامن الهجريّ، وأحواله، ونظرته إلى الحياة؟
- هل يمكننا تعرّف شخصيّة الصفدي العلميّة، وأن نجعله مثالًا لمثقفي ذلك العصر؟
- هل تحمل هذه الرحلة سياقات إنتاجها (الفكريّة والثقافيّة والحضاريّة والفنيّة)؟

أهمّيّة البحث:

- تأتي أهمّيّة هذه الرحلة من أنّها تصلح لأن تكون مثالًا ناجحًا لأدب الرِّحَل العربيّ.
- هذه الرحلة نافذة لفهم أدب الرِّحَل في عصرها، فضلًا عن أنّها إضافة قيّمة لأدب الرحل العربيّ عمومًا.
- غنى المخزون المعرفيّ الذي حِيكَ منه النسيج اللغويّ لهذا النصّ الرحليّ.
- هذا النصّ الرحلي مرآة ثقافيّة ووثيقة حضاريّة تعكس ثقافة العصر ومعارفه وعلومه.

أهداف البحث:

- محاولة وضع خريطة معرفيّة لهذا النصّ الرحليّ، من أجل الولوج في عالم أدب الرحل، والاقتراب من فهمه واستكشافه، وتوثيق جغرافية الزمان والمكان والإنسان.
- محاولة ربط العلاقة بين التجربة والتعبير من استبطان التشكيل المعرفيّ لرحلة الصفديّ.

الإطار النظري والدراسات السابقة:

يندرج كتاب (حقيقة المجاز إلى الحجاز) تحت جنس أدبيّ يُسمّى (أدب الرحل)، وهو يصوّر رحلة الركب الشامي من دمشق إلى الحجاز لأداء فريضة الحجّ.

منهج البحث:

هو المنهج الوصفيّ التحليلي، إذ قامت الرحلة على حشد خبرة معرفيّة غنيّة متنوّعة المصادر: (الدين والأدب والنحو واللغة والبلاغة والتاريخ والجغرافيا والفلك والفلسفة)، فاتّخذت الدراسة من المنهج الوصفيّ وسيلة إلى تقرّي النصّ الرحلي، ومن ثمّ تحليل المعطيات الفكريّة والفنيّة لاستقصاء الأثر المعرفيّ في هذه الرحلة.

مفهومُ التشكيلِ المعرفيّ ومصطلح أدب الرِّحَل:

القصد من كلمة (التشكيل) هو البنية السطحيّة أو اللغويّة التي تُجسّد الرؤيا، والقصد من (التشكيل المعرفيّ) هو البنية العميقة أو الفكريّة أو المعرفيّة لدى الأديب، وهي الرؤيا التي تتحكّم في تشكيل بنية الخطاب في النصّ الأدبيّ؛ إذ إنّ البنية العميقة المعرفيّة هي التي تقود البنية السطحيّة وتتحكّم في بنائها.

فالتشكيل المعرفيّ في النصّ الأدبيّ هو: الحقل المعرفيّ الذي يقوم عليه النصّ الأدبيّ، وبناء الدلالات المعرفيّة الناتجة منه، مع إدراك ظلالها الفنيّة الجماليّة(١).

وهو المكوّنات الثقافيّة المشكّلة بناء النصّ الشعريّ التي تجلّت من خلال استدعاء المخزون المعرفي(٢).

أمّا أدب الرِّحَل فهو ليس بحثًا في التاريخ، ولا وصفًا جغرافيًّا، وليس قصّة قصيرة أو رواية أو قصيدة شعر، وإنّما هو هذا وذاك، ومن ثمّ يكتسب خصائصه المتميّزة، وطعمه العذب، وقدرته على تلبية مطالب المؤرّخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون إلى معاينة الوقائع وسبر غورها العميق(٣).

إنّ هذه الدراسة التي استهدفت (التشكيل المعرفيّ في أدب الرحل – رحلة الصفدي- مثالًا)، كانت الأولى في حدود علمي واطّلاعي، فكتاب (حقيقة المجاز إلى الحجاز) صدر محقّقًا سنة (٢٠٢٣م)، ولم أعثر في أثناء بحثي على دراسة وقفت على هذه الرحلة وصفًا وتحليلًا.

ولا أدّعي أنّ الصفديّ في رحلته هذه كان بِدْعًا بين مؤلّفي أدب الرحلات، فقد سبقه إلى ذلك ابن جُبير (ت٦١٤هـ)، والعبدريّ الحيحيّ المتوفّى بعد (٧٠٠هـ)، بيد أنّ هذه الرحلة دلّت على أصالة لغة العصر، ونصاعة بيان الصفديّ، فقد ازدهى فيها بنظم أغراض ألصق بمعارفه،

(١) التشكيل المعرفيّ في شعر ابن الحدَّاد الأندلسيّ: د. أسامة اختيار، مجلة جامعة دمشق، مج ٢٩، العدد (١+٢)، ٢٠١٣م، ص:١٢٠.

(٢) التشكيل الأسلوبيّ والمعرفيّ في شعر علي الفزّاع: أحمد البزور، موقع (عربي ٢١) على الشابكة ٢٦/ ٦/ ٢٠٢٠م.

(٣) من أدب الرحلات: د. عماد الدين خليل، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ٢٠٠٦م، ص:٦.

فكانت لهُ لَمَعَات منه لطيفة المنحى، عذبة المأخذ، خِصْبة في تلوين التعبير، وتمثيل المعاني والأخيلة، وعلى قدر كبير من الإبانة عن وجه من وجوه الحضارة والمعرفة السائدة في كلّ رَجًا من أرجاء بلاد الشام والحجاز في القرن الثامن الهجريّ.

المُقدّمة:

أرضُ الحجاز[٤] موطن الحنين في الشعر العربيّ، وقبلة المسلمين المقدّسة، والرحلة إليها على جناح منسوج من خيوط الأشواق طالما كانت حلمًا يراود العشّاق، ومغامرة ممتعة مطيَّبة بأريج البذل والعطاء، وتستحقّ التدوين والتسجيل بعدما استعصت على الحجّاج أمدًا طويلًا.

وها هو ذا صلاح الدين الصفديّ يودّ تأدية فريضة العمر، والوجد يتقاذفه، والحنين يلحّ عليه، فيتوحّد مع الماضي السحيق، مع اللحظات التاريخيّة المؤثّرة، مع الذكريات القادمة من عصر الرسالة، وينتشي بالوصول إلى أرض الطهر والنقاء، حيث كان رسول الله ﷺ يتلقّى الوحي من السماء، لينشر النور في الأرجاء، فيأخذك معه، وينقلك إلى عالم آخر، ويهزّك بشدّة، يثير أفكارك وشجونك، ويُمتّعك في كلّ لحظة حقيقيّة مع (حقيقة المجاز إلى الحجاز).

ترجمة الأديب:

هو خليل بن أيبك بن عبد الله الصفديّ، صلاح الدين، وُلد في صفد بفلسطين عام (٦٩٦هـ)، كان أبوه من أمراء المماليك الأتراك، فَحَرَصَ على أن يُنشئه نشأة عربيّة خالصة، فحفظ القرآن في صغره، وتعلّم في دمشق، وعانى صناعة الرسم فمهر بها، ثمّ أُولع بالأدب وتراجم الأعيان، وتصدّى للإفادة في الجامع الأمويّ، وتولّى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثمّ وكالة بيت المال في دمشق، وتوفّي فيها (٧٦٤هـ)، له زهاء مئتي مصنّف[٥].

---

(٤) الحجاز: مكّة والمدينةُ والطائف ومخاليفُها، والمخاليف: هي القُرى التي تكون حول المدينة، والمفرد: المخلاف.

(٥) ينظر: الدرر الكامنة: ابن حجر العسقلاني ٢/ ٨٧-٨٨، طبقات الشافعيّة الكبرى: السبكي ٦/ ٩٤-١٠٣، الأعلام: خير الدين الزركلي ٢/ ٣١٥-٣١٦.

تعريف الكتاب:

كتاب (حقيقة المجاز إلى الحجاز)[٦] للأديب المتفنّن البارع صلاح الدين الصفدي، هو الكتاب الذي ضمّنه وصف رحلته إلى الديار الحجازيّة سنة (٧٥٥هـ)، إذ خرج في عاشر شوّال منها، من قُبَّة يَلْبُغَا في دمشق، ثمّ انحدر جنوبًا، متّجهًا إلى الأراضي الحجازيّة، فتغلغل في مُدنها وقُراها قاصيها ودانيها، وصولًا إلى المدينة المنوّرة مهوى أفئدة المسلمين، ومنها إلى مهبط الوحي والبيت العتيق ليؤدّي مناسك الحجّ في تلك الشعائر المُقدّسة.

وكان يعرض في أثناء ذلك للجوانب التاريخيّة والجغرافيّة، مُتحدّثًا عن أصناف الناس وتباين الطباع، ونوازع الأعراق والأخلاق، واصفًا المراحل والمشاهد والأماكن والبقاع، والعجائب والغرائب، وصف معاينة ومُشاهدة، وكان يذكر في كلّ مرحلة ما وجد فيها من الأسواق والمطعوم والمشروب، والمشموم والمركوب، وحال مُناخها كما في (وادي النار) وما جرى لهم فيها، وما شاهده من أجساد منزوعة الروح، مُلقاة في الطريق بسبب الجوع والمرض في (وادي بني سالم) مثالًا، حتّى بلغت عدّة المواضع التي خلّدت هذه الرحلةُ ذكرَها خمسة وخمسين موضعًا، شحنها بهموم النفوس، وخوالج الصدور، وسوانح الأفكار، وفاضت فيها المحابّ والمكاره، والأشواق والآمال، والأفراح والأهوال، ورسم فيها جوانب مهمّة من رحلة

(٦) الكتاب الحائز جائزة ابن بطوطة، فرع تحقيق المخطوطات ٢٠٢٢-٢٠٢٣م، تحقيق: د. نهى عبد الرزّاق الحفناوي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، والمؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٢٣م.

الحجّ الشاميّ، فأَشْهدَنا هذه الرحلة في القرن الثامن الهجريّ عِيانًا، وقدّم لنا وثائق وشواهد حَيّة عن الحياة الثقافيّة آنذاك، وصورة عالية الدقّة عن اهتمامات العالِم الأديب الموسوعيّ المعارف، وعن آرائه وطريقة تفكيره، ومذهبه في الحياة، فبدا لنا الصفديّ فيها خبيرًا بعلوم الدين، متبصّرًا بأيّام العرب وأخبارهم، مطّلعًا على تاريخهم وأشعارهم، وله معرفة بأسماء الأماكن، وبمصطلحات علوم النحو والبلاغة والفلسفة والفلك، والهندسة والحساب، حاملًا أمانة اللغة والأدب والفكر، وواصلًا حاضرًا بماضٍ تأثَّل مجدُه، وبمستقبل يستشرف تباشيره، مُتحلّيًا في رحلته هذه بالصبر الجميل، والتجلّد أمام الصعاب، والتلذّذ بالمعاناة، والانتشاء بالصحراء.

وتضمّ رحلته هذه نصوصًا أدبيّة شعريّة ونثريّة مهمّة، فما يذكر فقرة نثريّة إلّا يُتبعها بنظم، والنظم أكثر من النثر، ونثره من النثر الأنيق البديع، المشحون بالعشق والشوق واللهفة، وأنشد مئة وستًّا وستّين مقطوعة شعريّة، وهي متفاوتة في عدد أبياتها، وبعضها قصائد مطوّلة كالتي أنشأها عند الروضة بالحرم النبويّ، وكذا التي نظمها أمام الحُجرة الشريفة لإبلاغ النبيّ ﷺ التحيّة المحتبسة في الوجدان سنوات طِوَالًا، فكان أبرز ما يُميّزها هو الدفق الشعوريّ والتوهّج العاطفيّ، وهذا التواشج بين الصناعتين: النظم والنثر كان له عونًا على رسم تجربة الحجّ الروحيّة، ذات المسار القصصيّ الممتع الجذّاب.

وتتنوّع حقول المعارف في هذه الرحلة، وسنبدأ بالمعرفة الدينيّة:

تحضر **المعرفة الدينية** في رحلة الصفديّ بقوّة، وتشيع في كلّ خطوة يخطوها الركب في طريق الحجّ، وتتجلّى هذه المعرفة في الاقتباس النّصّيّ

من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله[٧]:

يقـــولُ ســـائقُ ركبـــي: «ولاتَ حـــينَ مَنَـــاصِ»
لقَـــدْ بُلينـــا بـــدربٍ بطـــولِ يـــومِ القِصَـــاصِ
فقلـتُ: جِـيء بـي خُلَيْصًـا وأبشرْ بحسـنِ الخَـلَاصِ[٨]

يقتبس الصفدي قوله تعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]، وقد أتى على قطعة من الآية الكريمة محافظًا على لفظها، ليعبّر عن استمرار الركب في قطع القفار، على وعثاء السفر ووحشة الطريق.

وربّما استلهم الآيات القرآنيّة بتمامها، وأدخل عليها تغييرًا طفيفًا في اللفظ، ليبقى المعنى كما هو عليه في التنزيل العزيز، كقوله[٩]:

كَـــمْ قَـــدْ فككْنـــا رَقَبَـــهْ لمّـــا اقتحمْنَـــا العَقَبَـــهْ[١٠]!
وكـــــمْ لنـــــا أمنيّـــــهْ فـــــي حَجِّنَـــــا مُرْتَقبَـــــهْ!

يقتبس الصفدي قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١١-١٣]، ويضمّنه البيت الأوّل، مع إضافة (كم قد) و(لمّا) مستغلًّا طاقات اللغة الشعريّة، بدءًا بـ (فككنا واقتحمنا) وما فيهما من القدرة على تجاوز المشاقّ، وانتهاء بـ (أمنيّه ومرتقبَه) وما فيهما من أمل واستبشار، فيشحن العبارة الشعريّة بالطاقة الإيحائيّة، ليكشف عن خوالج نفسه، وما يعتمل في أعماقه من تفاؤلٍ وتشوّقٍ للوصول إلى الأحبّة.

---

(٧) حقيقة المجاز إلى الحجاز: صلاح الدين الصفدي، ص١١٤.

(٨) خُليصٌ: حصن بين مكّة والمدينة، معجم البلدان: ياقوت الحموي ٢/ ٣٨٧.

(٩) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٥٠-٥١.

(١٠) في كلمة (العقبة) تورية بين مدينة (عقبة الصُّوان) التي تقع جنوبيّ معان، وتُعرفُ في زماننا هذا بمحطة الشيدية، وبين ما يواجه الحاج من مشاقّ الطريق.

ومن الجدير بالذكر أنّ الصفدي أكثر من استلهام المعنى القرآنيّ في توظيف المفردات والتراكيب القرآنيّة، لتحمل أبعاد رحلته الإيمانيّة. يقول في ذلك[١١]: «ونحنُ على قطعِ ذاك القاعِ قد صمّمنا، وخصَّصنا العزائمَ بذاك وعمَّمنا، لأنّه قاعٌ صَفْصَفٌ، ومَهْمَهٌ نَفْنَفٌ، لا نرى فيه عوجًا ولا أَمْتًا، ولا نجد له إلّا السماء سمتًا، يخرُّ خِرّيتهُ من الضلال، ويَفِرُّ عِفْرِيْتُهُ من الظلال»[١٢]. إنّه يستلهم قوله تعالى جلَّت قدرته: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، فيستحضر مشهدًا من مشاهد يوم القيامة، ليعبّر عن أهوال الطريق، وعن الفزع ممّا يرى ويشاهد، ولكنّه - على ذلك كلّه - ما يزال تلهّفه وشوقه يحدوه لتجاوز العقبات والاستمرار. وهكذا لا تبرز قدرة الصفديّ في استدعاء النصّ القرآنيّ فحسب، بل في توظيف مخزونه المعرفيّ الدينيّ توظيفًا ينمّ على الإحاطة بالمعاني القرآنيّة.

وتتجلّى المعرفة الدينيّة أيضًا في هذه الرحلة الحجازيّة في توظيف الحديث النبويّ الشريف، فهو حين يصل إلى المدينة المنوّرة يستحضر خصائص مَنْ نَوَّرها، فيعدّد لنا هذه الخصائص بقوله[١٣]:

وقد جُعِلَتْ له الأرضونَ طُرًّا ... مساجدَ تُرْبُها عينُ الطَّهُورِ

ويُنصرُ بالصَّبا نصرًا عزيزًا ... وأُهلكَ قومُ عادٍ بالدَّبُورِ

(١١) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٠٨.

(١٢) الصفصف: الذي لا نبات فيه، والمهمه: القفر المستوي، والنفنف: مَهْوَاةٌ بين جبَلَيْنِ، والأمت: الانخفاض والارتفاع، أي: لا انخفاض فيها ولا ارتفاع، و السمت: القصد والطريق، والخرّيت: الدليل الماهر الذي يهتدي لأَخْراتِ المفاوز، وهي طرقها الخفيّة ومضايقها.

(١٣) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٢٥.

كـــذاك الرعـــبُ يقدمُـــهُ بشـــهرٍ على مَـنْ قـد غـزاه بـلا فُتـورِ
وحَـــلَّ لـــه غنيمـــةُ كـــلِّ جـيشٍ ولـــم يُـــؤْثَرْ سِـــواهُ بـــالنَّقيرِ
ويُنشـرُ فوقَـه والنَّـاسُ سَـكْرى لـواءُ الحمـدِ فـي يـومٍ عسـيرِ

يستثمر الصفديّ الحديث الشريف الذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنّ النبي ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يُعطهنّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطَهُورًا، فأيّما رجل من أمتي أدركَتْه الصلاة فليصلِّ، وأحلت لي المغانم، ولم تحلّ لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصّة، وبعثت إلى الناس عامّة»[١٤] في غرض المديح النبويّ، فيستدعي حديث الخصائص التي خَصّ الله بها محمدًا ﷺ دون غيره من الأنبياء، وغايته بيان عظمة هذا النبيّ، ومكانته الكبرى عند ربّ العزّة، وفضله العميم على أمّته، لذا نراه في مواقف أخرى من مواقف الزيارة النبويّة يستحضر مشاهد يوم القيامة، وأحاديث الشفاعة، ومنها قوله[١٥]:

فيشفعُ في الورى جَمْعًا ليُقضَى حِسَـــابُهُمُ بتفـــريجِ الثُّبُـــور
وأمّتُـــهُ شـــفاعتُهم خصوصًـــا بفضـــلٍ عنـــدَ ربِّهِـــمُ الغفـــورِ
إنِ اهتـــزّ الصـــراطُ وهـــمْ عليـــه ولـــيس يُجيـــزُهم غَيـــرُ المجيـــرِ
يَقـــلْ: يـــا ربّ ســـلِّم ربِّ ســـلِّم ونـــوِّلْ أمّتـــي حُسْـــنَ المصـــيرِ
فمـــنهم مَـــنْ يجـــوزُ عليـــه حَبْـــوًا ومـــنهم مَـــنْ يســـارعُ كـــالطيورِ

ثمّة إشارة إلى حديث رسول الله ﷺ: «يمرُّ أوّلكم كالبرق، ثمّ كمرِّ

(١٤) صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب المساجد، رقم الحديث (٤٢٩).
(١٥) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٢٦.

الريحِ، ثمّ كمرِّ الطيرِ وشدّ الرجال، تجري بهم أعمالهم، ونبيّكم قائمٌ على الصراط، يقول: ربِّ سلّم سلّم، حتّى تَعْجِزَ أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السَّيرَ إلا زَحْفًا»(١٦). وهذا الاستدعاء لهذا الجزء اليسير من مشاهد يوم القيامة، يجلب معه الاستبشار بفضل رسول الله ﷺ على أمّته، فيشيع أجواء الرحمة والقرب والرعاية والاصطفاء، ويشكّل إيقاعًا يغلب عليه النَّغَمُ الكسيرُ النَّابع من وقوف العبد الذليل أمام عظمة النبيّ الرحيم، في حين توحي القافية المكسورة بصدى الاحتياج البشريّ إلى هذا الفضل النبويّ العظيم.

ولا يقتصر الصفديّ في بثّ معارفه الدينيّة في رحلته على استحضار نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف، بل يعمد إلى توظيف المصطلح الدينيّ الذي يرتبط بأصل الاعتقاد وفروع الشريعة في كلّ جزء من أجزاء هذه الرحلة الحجازيّة الشريفة. ومن ذلك قوله(١٧): «ثُمّ إنّا سرنا ونزلنا بذي الحُليفة(١٨) مكانِ الميقات، وهمُّنا فيما فات لا فيما فات، واغتسلنا من آبار عليٍّ للدخول في الإحرام، ونزع المخيط، وتَلَقّي هذا الأمر بالإعزاز والإكرام، وصلّى ركعتين كلٌّ منّا، ووجدْنا ذلك نعمة من الله ومَنًّا، واختلفَتْ فئاتُ القومِ ذلك اليومَ، فمنهم المفردُ، ومنهم القارنُ، ومنهم المتمتِّعُ، وغالبُ الناس إلى هذا الأخير متسرِّع».

يوظّف الصفديّ هنا مصطلحات الإحرام (الإفراد والقران والتمتّع)

(١٦) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم الحديث (٣٢٠).

(١٧) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٩٩.

(١٨) ذو الحُلَيْفَة: قريةٌ بينها وبين المدينة ستَّةُ أميالٍ أو سَبْعَةٌ، منها مِيقَاتُ أهل المدينة، وهي من مياه بني جُشَمَ. معجم البُلْدان ٢/ ٢٩٥.

المرتبطة بأداء فريضة الحجّ، لأنها ركن أساسيّ من أركان الشعيرة، فاستدعاؤه لها ليس أمرًا شكليًّا، وإنّما ورد في إطار توظيف المعطيات الدينيّة التي قامت عليها هذه الفريضة.

وهو يكثر من استحضار المصطلحات الدينيّة في رحلته، ليتّكئ عليها في تأديته كثيرًا من المناسك والشعائر، ونجد هذا على سبيل المثال في مثل قوله: «واضطبعنا الأرديَة[١٩]».

ومصطلح (الاضطباع) مرتبط بمفهوم فريضة الحجّ ، وهو دلالة واضحة على تآلفه مع هذا النمط الجديد من العبادة.

وأوضح ما تجلّى به هذا اللون المعرفيّ في رحلة الصفديّ هو أنّ الصبغة العامّة لها الدافع الدينيّ، وهو مهيمن بقوّة فيها، ومصدر هذه القوّة هو تغلغله في ضمير الصفديّ ووجدانه، وانبثاقه من خلجاته وأفكاره. يقول على سبيل المثال[٢٠]: «ولمّا تطوّقنا من الجود قبل ما تطوّفنا به عِقدًا نظيما، رفعنا أيدينا وقلنا: اللهمّ زدْ هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا، ولم نقدِّم على تقبيل الحجر الأسود شيئًا، ولا التحفنا من ظلال غيره فيئًا، وقبّلنا يمينَ الله في أرضه، الشاهدَ لمن قبّله في يوم عَرْضه، فقبّلناه وسجدنا عليه ثلاثًا».

يوظّف الصفديّ المخزون الدينيّ لديه، فيستلهم المفردات والتراكيب الدينيّة (السجود، الطواف، الحجر الأسود، يوم العرض)؛ ليسقط أبعاد تجربته الذاتيّة المتدثّرة بالتجلّيات الإيمانيّة، فيفيض النصّ بروح التضرّع والابتهال من عبد ضعيف ذليل إلى ربّ قويّ عزيز، وينقلنا من دعائه

(١٩) اضطبع المحرم، أي: أدخل الرداء مِنْ تحت إبطه الأيمن، وردّ طرفه على يساره، وأبدى منكبه الأيمن، وغطّى الأيسر.

(٢٠) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١١٨.

الشجيّ وما فيه من إيحاء وتأثير، إلى تجربته الذاتيّة في تقبيل الحجر الأسود، ليضعنا في الجوّ النفسيّ نفسه، فتسري في النصّ نفحة علْويّة في استحضار (يمين الله) وما فيها من قداسة وجلال وسموّ، فيصنع من ذلك كلّه فرادة نصّيّة مفعمة بالروح الدينيّة.

ولطالما استعمل الصفديّ في نصّه الرحليّ التراكيب الدينيّة، كقوله قبل وصولهم إلى مكّة المكرّمة: «ولمّا لذَّ السُّرى وطاب، نَفَرَ الناس للاحتطابِ، لأنّ مكّة شجرها لا يُعضد، ورُطَب أعوادِها لا يُخْضَدُ»(٢١).

هذه التراكيب المتوهّجة بروح الإسلام تضفي على النصّ دلالات ذات إيحاءات ممتدّة ورحبة، وتلقي عليه ظلالًا وأفياءً، حول حرمة هذا المكان وقدسيّته، تبقى مؤثّرة في رُوع المتلقّي، وتجعلها أشدّ تأثيرًا وأعمق نفوذًا.

وحين يبلغ الصفديّ مدينة رسول الله ﷺ، تتجلّى ثقافته الدينيّة في أبهى صورها، فيغرف من بحر سيرته العطرة ﷺ مشاهد مؤثّرة، ويلتقط صورًا من حياة الدعوة الإسلاميّة منذ انبلاج فجرها إلى أن عمّت أقطار المعمورة، فيعلن مولدَ صاحب هذه الدعوة المبرورة ﷺ، وما صاحبه من الآيات والعجائب بقوله(٢٢):

ويومَ مولدِهِ كمْ آيةٍ ظهرَتْ ... وكانَ منها لأربابِ النُّهى عجبُ
فانشقّ إيوانُ كسرى بالعراقِ ومِنْ ... بعد التَّثبُّتِ أمسى وهْو يضطربُ
ونارُ فارسَ ذاك اليومَ قدْ خَمَدَتْ ... وكانَ يسطعُ منها في الدجى لهبُ

يقدّم لنا الصفديّ في هذه الأبيات صورة شعريّة مؤثّرة لوقائعَ من السيرة،

(٢١) المصدر نفسه: ١١٦. وَخَضَدَ الغُصْنَ: ثَنَاهُ مِنْ غيرِ كَسْرٍ، أو كَسَرَهُ مِنْ غيرِ أَن يبينَهُ.
(٢٢) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٩٠.

يصف فيها ما رافق ولادته الشريفة مِن إرهاصات (انشقاق إيوان كسرى، وخمود نار فارس) وما في هذه الإرهاصات من إثبات الوجود العربيّ، وإعلان رسالة الإسلام المقدّسة التي أحلّت العرب محلّ الصدارة بين الأمم.

ثمّ يذكر جهاده بعد النبوّة لإعلاء كلمة الله، وما لاقاه من المشركين من صدودٍ وأذى، وما أيّده الله به من معجزة القرآن الكريم، حتّى علا الحقّ، وانتصر دين التوحيد على خرافات الجاهليّة ووثنيّتها[٢٣]:

محمّدٌ الذي سَادَ البرايَا ... وأخجلَ طلعةَ القمرِ المنيرِ
تقدَّمَ أنبياءَ اللهِ طُرًّا ... وإنْ يكُ جاءَ في الزمنِ الأخيرِ
وجاءَ بشرعةٍ عمَّتْ وطَمَّتْ ... أيادِيها بتضعيفِ الأُجورِ
فراحَ فقيرُ أمّتِهِ يساوي ... بفعلِ البِرِّ أصحابَ الدُّثُورِ
أتى يَدْعو قُريشًا وهْو فَرْدٌ ... وهُمْ بالشركِ في جمعٍ كثيرِ
تَحَدّاهُمْ بقرآنٍ عظيمٍ ... فأغرقَ بحرُه وَشَلَ الغديرِ[٢٤]

ولا يأتي هذا الاستدعاء للسيرة النبويّة لحكاية قصّتها، أو سرد حوادثها، أو بيان خبرها، بل يأتي تلميحًا وإشارة إلى جانب محدّد منها، يخدم رؤية الصفديّ في إبراز صورة ساكن طيبة الذي تقدّم أنبياء الله جاهًا وقدرًا مجاهدًا في سبيل إعلاء كلمة الله، ونشر ألوية العدل والسلام، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، بقرآن مبين أعجزَ العرب في بيانهم وبلاغتهم.

ويستوحي الصفديّ معرفته الدينيّة من كتب الصِّحاح والسيرة مضفيًا

(٢٣) المصدر نفسه: ١٢٣.

(٢٤) الدثور: واحدها: الدَّثْرُ، وهو المال الكثير، والوَشَلُ: الماء القليل يَتَحلَّبُ مِنْ جَبَلٍ أو صخرةٍ يَقْطُرُ منه قليلًا قليلًا. وقيل: الماء الكثير، فهو على هذا ضدٌّ، والغدير: القطعة من الماء يغادرها السيل.

عليها حُلَّةَ الإعجاب والإبداع، إلى ما يُقحمه في أثناء المشاهد، ويُثيره من عواطف تناسب الموقف، وتشدّ النظر إلى موضع العبرة فيه. يقول في قصّة هجرته ﷺ من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة، وما صَاحَبَها من معجزات في الطريق[٢٥]:

ومُقامُ طيبةَ فيهِ نازعَ مكّةً ... شوقًا وجَدَّ بهِ فمالَ لجذبِهِ
كمْ غارَ يومَ الغارِ كهفٌ ودَّ لو ... أَرخَى عليهِ نِقَابَهُ في نَقْبِهِ
أَتراهُ سَدَّ العنكبوتُ بهِ سُدًى ... وثَوى الحَمامُ فلم يَزُغْ عَنْ زُغْبِهِ
وسُراقةٌ لمَّا تتبَّعَ إِثْرَهُ ... سَاخَتْ قوائمُ طِرْفِهِ في تُربِهِ[٢٦]
وأَتَى لخيمةِ أمِّ مَعْبَدٍ عندَما ... لاحَتْ على بُعْدٍ لهُ في دَرْبِهِ
فَرأى هنَاكَ شُويهةً لهُزالِهَا ... مَا دَرَّ منها الضَّرْعُ قطُّ لحلبِهِ[٢٧]
فَأَمرَّ يُمنَاهُ على أخلافِها ... فاسترسَلَتْ لبنًا يفيضُ بقَعْبِهِ[٢٨]

يُسخِّر الصفديّ في هذه الأبيات ذخيرته المعرفيّة الدينيّة في بناء الدلالات الجزئيّة من غير أن يفصم عروة الغرض الرئيس الذي صُنع له النصّ، وتنساب المعاني بسلاسة مشكِّلة دلالات النصّ، بدءًا بذكر قدسيّة المكان من مكّة المكرّمة إلى طيبة الطيبة، ومن ثمّ إلى رسم الصورة التفصيليّة للمشهد الذي يقوم على مكابدة مشاقّ الخروج من مكّة وألم فراقها، وصولًا إلى غار ثور حيث العنكبوت ينسج خيوطه، والحمام يرعى أفراخه كِلاءَةً للحبيب المصطفى، وسترًا عن أعين المشركين، إلى سراقة

(٢٥) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٤١.
(٢٦) ساخت رجله في الأرض: غاصت فيها. والطِّرف من الخيل: الكريم العتيق.
(٢٧) شويهة: تصغير شاة.
(٢٨) القعبُ: القَدَحُ الضَّخْمُ تُحْلَبُ فيه الشاة.

الطامع بالمال الوفير، إلى خيمة أمّ معبد، وما حدث فيها من معجزة الشاة التي درّت اللبن بعد هُزالها، انتهاءً بالمديح النبويّ، والتغنّي بخصاله النبيلة وشمائله الكريمة، وأوصافه الخَلْقيّة والخُلُقيّة، فيفيض في ذلك، ويتفنّن ما شاء، وهي أوصاف لا تليق إلا بمقام النبوّة، ومن ضمنها شجاعته الفائقة ﷺ يوم غزوة بدر الكبرى(٢٩):

وَقُريشُ قدْ كانتْ صَناديدَ الورى ... كلٌّ يخافُ البرقُ سَلَّةَ عَضْبِهِ
حتَّى رأَوا في يومِ بدرٍ بأسَهُ ... فَقَضَوا بأنّهم انقضوا مِنْ قُضْبِهِ
والحربُ إنْ دارَتْ رَحَاها لم تَدُرْ ... إلّا على ذاك الثباتِ لقُطْبِهِ

في هذه الأبيات من حرارة العاطفة وجودة التعبير ما يعدّ مزيّة من مزايا التشكيل المعرفيّ للنصّ الشعريّ، وباعثها هو الإعجاب بشدّة بأسه ﷺ إذا حَمِيَ الوطيس، وقدرته على إذلال الصناديد، وثباته في ساحات الوغى. هذا المشهد المثير لانتباه المتلقّي، وما فيه من صور البطولة ورباطة الجأش احتجاجٌ على عارضة الصفديّ القويّة، وملكته الراسخة، وقدرته على التعبير عن حبّه الدفين، والاعتراف بالجميل لما أسداه رسول الله ﷺ لهذه الأمّة من خِدْمةٍ عظيمة في هدايتها إلى معالم الرشد، وفتح أعينها على منابع النور. ومِنْ هنا تأتي أهمّيّة هذا النوع من مصادر الاستلهام المعرفيّ في القصص الدينيّ، إذ لا يستدعي الصفديّ هذه المواقف من السيرة الشريفة حكاية لتفصيلاتها، إنّما يتّكئ عليها ليتّخذها وسيلة لإسقاط شعور ذاتيّ خاص به في أثناء سرد سيرته المباركة.

(٢٩) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٣٩. وسَلَّةَ: مصدر مَرَّة لسلَّ السيف؛ أي: شَهَرَهُ وانتضاهُ، وقُضْبه: جمع قضيبٍ؛ أي: السَّيف.

وهو يخلّل هذه المواقف من السيرة العطرة بذكر المعجزات التي صحبتها بقوله[٣٠]:

ولمّا أَنْ دعَا الأَشْجَارَ جاءَتْ تميسُ بِمِعطَفِ الغُصْنِ النضيرِ[٣١]
وقالَ لها: ارجعي عَودًا لبَدْءٍ فراحَتْ نحوَ منبتِهَا الحفيرِ
وعينُ قَتَادةٍ سَالَتْ فَرُدَّتْ بيمنَاه لموضِعِها الفقيرِ[٣٢]
وكانَتْ أحسنَ العينينِ منهُ وذاكَ بأمرِ خَلّاقٍ قَديرِ
وأَعطَى عِرقَ نَخْلٍ يومَ بَدْرٍ عُكَاشَةَ والرَّدى حَامي الزفيرِ
فكانَ بكفِّهِ سيفًا صقيلًا يَصُولُ على العِدا سِنًّا طريرِ[٣٣]
وتسليمُ الصُّخورِ عليهِ يكفي لأربابِ التفكّرِ في الأمور

يستحضر الصفديّ في درج السرد التفصيليّ للمعجزات النبويّة الباهرة حوادث قصصيّة لها تأثيرها في ذهن السامع ومخيلته، فالأشجار تأتي لحضرته ساعية وتعود بأمره راغبة، وعين قتادة تُقتَلعُ، فيردّها النبيّ إلى مكانها بيده الطاهرة لتغدو أحسن العينين، والعود يتحوّل إلى سيف في يد عكاشة ببركة النبيّ ﷺ، والحجر والشجر يُسلّم على الكريم ابن الكريم.

وهذا السرد القصصيّ لحوادث السيرة النبويّة يتجلّى فيه الأفق الواسع للرؤية الشعريّة عند الصفديّ، وإبداعه في تشكيل هذه المعرفة، لتناسب مقام الحبيب المصطفى ﷺ، فجمع في أبياته بين عاطفته الشريفة وشعوره

(٣٠) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٢٦-١٢٧.

(٣١) تميسُ: ماسَ الشخصُ: اختال في مِشيته وتبختر وتمايل.

(٣٢) الفقير: ليست على ظاهر لفظها، بل معناها هُنا: المحفور. وقد تكون مُصَحَّفةً عن القفير: الخالي؛ أَيْ: ردَّ عينَهُ إلى محجرها المحفور، أوِ الخالي منها.

(٣٣) سِنان طرير؛ أي: مُحدَّد.

النبيل إزاء النبيّ محمّد ﷺ، ومتانة حَوْك الأبيات وحُسْن صياغتها، وهذا أمر يدلّ على مقدرة تامّة وملكة راسخة، وعلى مقامه العلميّ الرفيع.

وإنّ زيارة المدينة المنوّرة في الرحلة الحجازيّة لا تقتصر على استحضار شخصيّة النبيّ محمّد ﷺ خاتم النبيين، وإنّما تستدعي أيضًا إخوانه السابقين من الأنبياء والمرسلين، فقد كان الاستمرار والبقاء لنبوّة محمد ﷺ ودعوته على الرغم مما أُوتوه من شرف الحكمة، وما خُصُّوا به من مزية النبوّة والمعرفة. يقول(٣٤):

هوَ خاتمُ الرسلِ الكرامِ محمّدٌ ... مَبْدا الهدايةِ للورى أَكْرِمْ بهِ

وجهٌ جَلا في الحُسْنِ صُورةَ يوسفٍ ... لمّا كسَاه اللهُ جُبّةَ حُبّهِ

ونُبوةٌ ما كان يعقوبٌ يرى ... يومًا لوامعَ نورِها في عَقْبِهِ

لكنّ إسماعيلَ أسْمى مَنْ سَمَا ... لمنالِها ومنارِها في شِعْبِه

يستدعي الصفديّ شخصيّة النبيّ (يوسف) عليه السلام، ويذكر حسنه، ذلك أنّ اسم يوسف أصبح دلالة على الجمال البشريّ المطلق، وأيّ استدعاء لنبيّ الله يوسف عليه السلام يستدعي معه بالضرورة والده النبيّ (يعقوب) عليه السلام، والقميص الذي جاء به البشير (جبة حبّه)، وما يحمل هذا القميص من دلالات البرء والوجد، إلّا أنّ يعقوب عليه السلام لم يحظَ بشرف أن يكون استمرار النبوّة في عَقِبِهِ، في حين نالها (إسماعيل) عليه السلام، فكان محمد ﷺ من نسله الشريف. ويبدو أنّ استلهام أسماء النبيين عنده لم يكن يقوم على حكاية قصصهم، بل كان يكتفي بالإشارة إلى أسمائهم أو إلى شيء يتعلّق بهم،

(٣٤) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٣٨ . عَقْبُ الرَّجُلِ: وَلَدُهُ. وهو عَقِبٌ، أسكن عين فَعِل. [وتسكين القاف في «عَقِب» للتخفيف لغة قديمة نصّ عليها العلماء. المجلّة].

ويختزل في النهاية دعوتهم وخصائصهم بدعوة محمد الباقية إلى الأزل، وبخصائصه المتفردة إلى يوم الدين. وهكذا كان الصفديّ يستوحي من خزانة معرفته الدينيّة أسماء الأنبياء الكرام، وما تحمله من هالات قدسيّة فيّاضة تهبه إمكانات استشرافيّة وآفاقًا أرحب، انطلاقًا من الانسجام والتواصل بين سيرة محمّد ﷺ ومن سبقه من أنبياء الله الكرام.

وهو لم يستذكر الأنبياء السابقين فحسب، بل استحضر أيضًا نماذج من حياة الصحابة توحي بفَعَالهم الحميدة وبطولاتهم الفذّة. ولعلّ الخلفاء الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا - رضوان الله عنهم - من أكثر الصحابة ورودًا في هذه الرحلة المباركة، فأسماؤهم تُستدعى عند الإشادة بشمائلهم وفي معرض التشبّه بهم. يقول[٣٥]:

لم يسبقِ الصّديقُ باقي صَحبهِ ... إلا لسرٍّ مُوْدَعٍ في قلبِهِ
وكذلكَ الفاروقُ أحجمَ مدّةً ... ثُمّ استقرَّ الدينُ منُه بندبِهِ
وكذاكَ ذو النُّورينِ عُثمانُ الذي ... في الهجرتين صَفَتْ مواردُ شِرْبهِ
وعليٌّ أوّلُ مُسْلمٍ قدْ كانَ في الصـ ... ـبيانِ لم يخلطْ صِباه بِلِعْبِه

يعدّد الصفديّ بعض مآثر الخلفاء الراشدين التي نالوا بها المنزلة الجليلة عند رسول الله ﷺ، ولا يفيض الصفديّ في استحضار ما قدّموه من خدمات عظيمة للإسلام في مدة خلافتهم، لأنّ ذلك ماثل حقيقةً في ذهن المتلقّي حاضر فيه، وإنّما يكتفي بما يشفّ عن حضور أسمائهم من دلالات مناسبة لمقتضى الخطاب، وكأنّ المقصد الأول من ذكرها هو التلذّذ بها.

ثمّ يستكمل الصفديّ بناء التشكيل المعرفيّ باستلهام أسماء بعض

(٣٥) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٣٩.

الصحابة الكرام: «وتعجّبتُ من الركبِ وكلُّ مَنْ فيه قد خالفَ القياس، ووافق فيه على خلافٍ تحارُ له ألمعيّة ابن عباس، وفطنة القاضي إياس، لأنّهم يأخذون المنزلتين إذا عادوا في منزلة»[٣٦].

يستلهم الصفديّ صورة حبر الأمّة وترجمان القرآن (عبد الله بن عبّاس) من حقل المعرفة الدينيّة دالًّا على حِذقه وألمعيّته، وتقوم هذه الدلالة على المعجم الدينيّ في رسم صورة هذا الصحابيّ الجليل (القياس- خلاف- المنزلتين- المنزلة). ومن الطبيعيّ حضور المعجم الدينيّ في رسم صورة الصحابة الأجلّاء، لكن الصفديّ يظهر براعته في استلهام المصطلح العَقَدِيّ المتعلّق بالمعتزلة الذين يؤمنون بالمنزلة بين المنزلتين، مورّيًا بذلك عن المراحل التي قطعوها.

وقد يستحضر الصفديّ الشخصيّة الدينيّة للتأسّي والاقتداء، ويتجلّى هذا بقوله[٣٧]: «ورُحتُ أنا إلى قُبا ساعيًا على قدمي، وهوّنتُ ذاك ولو اختضبتِ الطريقُ بدمي، على أنّني ما ركبتُ في المدينةِ الشريفةِ ظهرَ دابّة اقتداءً بالإمامِ مالك، ولا سلكتُ راكبًا فيها من المسالك».

كان الإمام مالك - رحمه الله - لا يركب بالمدينة دابّة، وكان يقول[٣٨]: «أستحيي من الله أن أَطأَ تربةً فيها رسولُ الله ﷺ بحافرِ دابّة»، والصفديُّ متأسٍّ في المدينة المنوّرة بالإمام مالك، فهو إمام دار الهجرة الذي يشار إليه بالبنان،

(٣٦) المصدر نفسه: ١٤٩. ويقصد بالقاضي إياس: إياس بن معاوية بن قرّة المُزَني (ت١٢٢هـ) قاضي البصرة، وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء، يضرب المثل بذكائه وزكنه. الأعلام: الزركلي ٢/ ٣٣.

(٣٧) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٩٧.

(٣٨) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: أبو الفضل عِيَاض بن موسى اليحصبيّ، ص:٥٤٠.

وإنّ تقليده واتّباعه يشي بفهم الصفديّ العميق للمعارف الدينيّة، وقدرته على محاورتها ومحاكاتها، وبالتفاعل الحقيقيّ مع روح الدين للتعبير عن تجربته الشخصيّة، فيخلد بذكرِه مناقبَه ومآثره، ويختزل في شخصِه شخصيّات عدّة حاز فضائلها، واستلهم تفصيلات حياتها، فاستحضار شخصيّة الإمام مالك هنا يُؤكّد أنّ الشخصيّة الدينيّة هي الغاية القصوى، والملهم الأسمى. وإنّ هذا التوظيف للشخصيّة الإسلاميّة إنّما يدلّ على ثقافة الصفديّ، وإعجابه بشخصيّات حضارتنا الإسلاميّة المجيدة ونشرها بين الآخرين ليتأسَّوا بها، فكأنّ الماضي انسحب على الحاضر، وعلى وجدان الأمّة بقيمه الروحيّة والفكريّة، وهو ما أكسب تجربته غنًى وشمولًا.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المعانيَ المُستمدّة من المعجم القرآنيّ والحديثيّ، والمستوحاة من روح الإسلام والإيمان، تسري في هذا النصّ الرحليّ من أوّله إلى آخره بسلاسة وسهولة، وهي التي تضفي عليه مسحةً روحيّة نورانيّة مكتسية رداء الجلالة والقداسة؛ فقد أتى الصفديّ بمعارفه الدينيّة المتغلغلة في ضميره ووجدانه في أعطاف رحلته، وأعاد تشكيلها بما يخدم هدفه من النصّ، بعد أن سخّر هذه المعرفة في بناء دلالات جزئيّة تشكّل بمجموعها جسد النصّ العام، أمّا روحه فكانت شعوره الدينيّ الصادق والعميق.

ولم يقتصر اهتمام الصفديّ على إبراز المعرفة الدينيّة وتوظيفها، بلِ اهتمّ بتوظيف **المعرفة الأدبيّة** أيضًا، لأنّها أقرب إلى روح النصّ الأدبيّ، فعكف على المخزون الشعريّ يضمّنه في أدبه الرحليّ، وغالبًا ما يكون التضمين[٣٩] لتوارد الأحوال، أو لإبراز سعة الاطِّلاع.

(٣٩) التضمين عند البلاغيين هو: قَصْدُك إلى البيت من الشعر أو القسيم، فتأتي به في آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثل. العمدة في صناعة الشعر ونقده: ابن رشيق القيرواني =

وكان يستقدم أحيانًا بيتًا شعريًّا من نصّ شعريّ قديم، ويضمّنه نصّه الرحليّ، ويدخله في تفاعل نصّي جديد، وأمثلته لذلك عديدة، منها قوله بعد خروجه من مكّة المكرّمة متوجّهًا إلى مدينة الحبيب المصطفى ﷺ مستحضرًا بيتًا لأبي الطيّب المتنبّي، قاله بعد فراق سيف الدولة الحمدانيّ ووصوله إلى مصر حيث كافورٌ الإخشيدي(٤٠):

رحلتُ عن البيتِ العتيقِ المحرَّم إلى خير قبرٍ في الأنامِ معظّمِ
وكنتُ كما قد قال قبلي حقيقةً أبو الطيّبِ الكوفيّ ربُّ التكلّمِ:
فِراقٌ وَمَنْ فارقتُ غيرُ مُذمَّم وَأَمٌّ ومَنْ يَمَّمتُ خيرُ مُيَمَّمِ(٤١)

منح الصفديّ بيت المتنبّي معنى جديدًا في مقام جديد، فهو يودّع بلدًا معظّمًا شريفًا، ويستقبل بلدًا مقدّسًا حبيبًا، وروحه تهفو وتتوق إلى ديار الأحبّة حيث تستقرّ وتهدأ. وفي هذا التضمين تظهر مقدرته الإبداعيّة في إظهار ما استكنّ في وعيه من معارف أدبيّة، وخبرات ثقافيّة، ثمّ إعادة إنتاجها بلبوس جديد، وفق سياقاته الجديدة.

وربّما تتماهى تجربة الصفديّ الروحيّة وموقفه النفسيّ والشعوريّ مع تجربة الشاعر الأسبق وموقفه، فيقول(٤٢):

هَذا الحقيقُ بأنّ الصَّبَّ ينشدُه: يا مطلبًا ليسَ لي في غيرِهِ أَربُ(٤٣)

= ٢/ ٨٤، ونرى أنّه في هذا التعريف فرّق بين الاقتباس والتضمين، فالأوّل يخصّ القرآن والحديث على ألّا يدمج قوله تعالى أو كلامه ﷺ بكلام الآخرين، والثاني يخصّ الشعر، وهذا ما تردّد في كتب البلاغة.

(٤٠) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٣٢.

(٤١) شرح ديوان المتنبّي: عبد الرحمن البرقوقي، ص:٤٠٣.

(٤٢) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٨٩، ٩٣، ٩٤.

(٤٣) مطلع بائيّة مشهورة لشهاب الدين بن الخيمي(ت ٦٨٥هـ)، كان قد ادّعاها الشيخ نجم =

وكانتِ الفرسُ تستعلي بسُؤْدَدِها فحينَ أُرسل فينا سادتِ العربُ
وأزرقُ الصبحِ يبدو قبلَ أبيضِه وأوّلُ الغيثِ قطرٌ ثمّ ينسكبُ (٤٤)
وخلفَهم عُصْبَةٌ كمْ قالَ قائلُهم: لله قومٌ بجرعاءِ الحمى غَيَبُ (٤٥)
ما قالَ منهم أخو وجدٍ لصاحبِه: باللهِ قلْ لي: كيفَ البانُ والعَذَبُ؟ (٤٦)
ولم يقلْ حينَ لاحَ البرقُ مُعْتَرِضًا: لقدْ حكيتَ، ولكنْ فاتَك الشَّنَبُ (٤٧)
ولا لصوبِ الغوادي وهي سافحةٌ: ما بالُ عينيك منها الدمعُ مُنْسَكِبُ (٤٨)

يستحضر الصفديّ أشطارًا من بائيات ابن الخيمي والبُحْتريّ وذي الرمّة، فيتشارك الشطران في الموقف الذي أدّى إلى هذا النسج، وهو موقف تجرع ألم البعد والفراق. ويجد المتلقّي أنّ الإحساس بالفقد والشوق هو المحرّك الأساسيّ لهؤلاء الشعراء، وهُنا تظهر براعة الصفديّ في حسن توظيفه التضمين، إذ يُحيي المعنى القديم، ويمنحه طيفًا جديدًا، وينجح في تطويع

= الدين بن إسرائيل، وتداعيا عند الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض، فأمر ابن الفارض أن يعمل كلّ منهما قصيدة على الوزن والقافية، فعملا ذلك، فحكم ابن الفارض بالقصيدة للشهاب الخيمي، وعجز البيت: "إليكَ آلَ التقصّي وانتهى الطلبُ". فوات الوفيات: الكتبي ٢/ ٣٨٢.

(٤٤) البيت للبحتري في ديوانه: ٣٤٤.

(٤٥) لله قوم بجرعاء الحمى غيب، مطلع قصيدة لابن الخيمي، كان قد نظمها عندما احتكما هو وابن إسرائيل إلى الشيخ شرف الدين بن الفارض، وعجز البيت: جَنَوا عليّ ولما أن جَنَوا عَتبوا. فوات الوفيات: الكتبي ٣/ ٣٨٣.

(٤٦) عجز البيت لابن الخيمي، وصدره: ويا نسيمًا سرى من حيّ كاظمةٍ. فوات الوفيات: الكتبي ٢/ ٣٨٣.

(٤٧) عجز البيت لابن الخيمي، وصدره: يا بارقًا بأعالي الرقمتين بدا. فوات الوفيات: الكتبي ٢/ ٣٨٣.

(٤٨) ما بال عينيك منها الدمع منسكب، مطلع قصيدة لذي الرمة برواية ينسكب، ديوانه: ١٩. وعجز البيت: كأنّه من كُلًى مفْرِيَّةٍ سَرِبُ.

الغزل لغرض آخر، وتحويله إلى تفاعل مناسب لتجربته النفسيّة، وكأنّه يريد بهذا التضمين جمع أشواقهم إلى شوقه المتّقد وجعلها في صعيد واحد، وهو ما يدلّ على تميّز أسلوبه، وقدرته العالية على المزج بين أغراض الشعر، والتحكم بما يخدم مراده. ويتّضح لنا هنا أنّ النصّ الشعريّ لم يفقد شيئًا من جمالياته بانتقاله من سياقه الأصليّ إلى سياقه الجديد، بل بدا ملائمًا سياقه الجديد لدرجة تمكّن من جعله امتدادًا طبيعيًّا له، أو منشئًا لهذا السياق.

ويندرج في حقل المعرفة الأدبيّة استصحاب الصفديّ ثلّة من كبار شعراء العربيّة في درب رحلته الحجازيّة، نذكر من ذلك قوله: «وثَوَّرنا النياق للرحيل ليلًا، وقمنا وشوقنا الزائد ما يتعقّلُه مجنونُ ليلى»[٤٩]. إنّه ينقلنا إلى عالم الحبّ، مستلهمًا في ذلك شخصيّة الشاعر المجنون (قيس بن الملوّح) الذي كان رمزًا من رموز العشق في الأدب العربيّ، ويحيل المعنى على دلالة أخرى تتجلّى فيه دلالة الحبّ الذي يتّسم بسمة قدسيّة علْويّة لارتباطه بشخص الحبيب المصطفى ﷺ.

إنّ استدعاء الصفديّ أسماء شعراء العربيّة ليس بالأمر الجديد، وإن كانت كثرته لافتة للنظر، إلّا أنّ اللافت أكثر هو الطريقة التي اشتقّ فيها الأسماء، وولّد منها المعاني، ولعلّ هذا الأمر كان مَوْعيًّا ومقصودًا لديه، يدلّ على ذلك قوله[٥٠]:

وأَمّمنَا حِمَى الهَادي بِذلٍّ كُثيّرُ عَزّةٍ ما ذاقَ عِزَّه
ونلنَا مطلبًا أمسَى عزيزًا غَنِينَا إذْ فتحْنَا منه كَنْزَه

(٤٩) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٨١.

(٥٠) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٨٤، ٨٥.

فما إن اقتربَ الصفديّ من طيبة الطّيبة، منكسرًا متذلّلًا يرجو الوصال، حتى ذاق طعم القرب، وانتشى بالعزّ والحبّ، وأحسّ بأنّه امتلك الدُّنيا وما فيها، فتذكّر (كثير عزّة) الذي لم يعرف من اسم محبويته إلا ضدّه، إنّه يُسقط هُنا بعدًا من أبعاد تجربته الشعريّة الخاصّة، مستثمرًا اسم الشاعر (كثير عزّة) لخدمة ما يريد البوح به، وبذلك يغني مضمون تجربته ويعمق دلالاتها.

ويعود الصفديّ إلى الماضي ليستصحب في رحلته الحجازيّة (حسّان بن ثابت) شاعر رسول الله ﷺ قائلًا(٥١):

لقدْ ذكرنَا دِمشْقًا في الحجَازِ ومَا قدْ قال حسّانُ في أملاكِ غسّانِ
فكم طليحٍ بذاتِ الطلحِ طلّ وكَم ذي رُمّةٍ قد غدا تحتَ ٱمِّ غَيلانِ(٥٢)

وفي سياق الاسترجاع يتذكّر الصفديّ (دمشق) المدينة التي عَجَزَت الأيّام أن تمحوها من ذاكرته، واستطاع بخياله المتوقّد وعشقه الملتهب أن يستحضر صورة (حسّان بن ثابت) متردّدًا إليها، مادحًا بني غسان، قاطعًا المفاوز والفلوات، فيلتقي في عمق الصحراء الشاعر (ذا الرمّة) الذي طالما تغنّى بـ (أمّ غيلان)، فتصير هذه الشخصيّات ظلالًا وإشارات توحي وتلهم، وكان توظيفه لها مناسبًا سياق الأبيات، فمشهدُ الركب المتعب ما بين دمشق والحجاز، ومحاولات البحث عن ظلال وأشجار (الطلح- أم غيلان)اتقاءَ حرِّ الشمس ووهج الهجير، متناغمًا مع استصحاب أسماء هذه الشخصيّات = يؤكّد حضور المعرفة الأدبيّة لديه بوصفها تمثّل ثقلًا أساسيًّا في منظومة

(٥١) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٠٢.

(٥٢) بعير طليح، وناقةٌ طليح: إذا جَهدها السير وهَزَلها، والطلح: شجرٌ عظامٌ حجازيّة، وأمُّ غيلان: أشجار كثيرة الشوك بالبادية، تسمّى شجر السَّمُر، واسم ذي الرُّمَّةِ: غيلان بن عقبة العَدَوِيّ.

المعارف التي يستلهم منها فكره وفنّه وأدبه.

وتتبدّى لنا أيضًا غزارة الذخيرة المعرفيّة المخزونة في أدبه، في استحضار أسماء رواة الشعر العربيّ في عصور سابقة بقوله[٥٣]: «وكنّا قد مررنا بمكان يُقال له: الجَنِيْب، ولم يَمُرَّ ذكرُه بأبي عبيدةَ، ولا قَرُبَ من ابن قُريب، وقيل لنا: هذا من العُلا قريب». فكم مرّة تغلغل أبو عبيدة والأصمعيّ وأبو عمرو بن العلاء في عمق الصحراء لسماع قصيدة، أو بيت، أو كلمة، إلّا أنّهم لم يمرّوا بهذا المكان (الجنيب) الذي وصل إليه الركب الشامي!. وباستصحاب أسماء هؤلاء الرواة الكبار نتعرّف الطريقة التي ينتهجها الصفديّ في إعادة تشكيل مخزونه المعرفيّ، والإفادة منه لبناء دلالات معرفيّة جديدة.

إنّ أدب الرحلة يشكّل وثيقة ثقافيّة أدبيّة مهمّة، وربّما كان ذلك لأنّ الأدباء تناولوا فيه موضوعات عاينوها وتفاعلوا معها، نجد هذا في توثيق الصفديّ حادثة وفاة الشاعر (شمس الدين الخيّاط) بقوله[٥٤]: «ولمّا أتينا مَعَان[٥٥]، وفيها مزّق اللهُ من الشمس الشاعرَ الخيّاط[٥٦] عمرَه، وأذهبَ شِعرَه وشَعْره،

(٥٣) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٦٩. ويقصد بابن قُريب: عبد الملك بن قريب الأصمعيّ.

(٥٤) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٥٠، ١٥١.

(٥٥) معان: مدينة في طرف بادية الشام، تلقاء الحجاز، من نواحي البلقاء، منها ينزل حاج الشام إلى البرّ. مراصد الاطلاع ٣/ ١٢٨٧.

(٥٦) محمّد بن يوسف بن عبد الله الدمشقيّ الحنفيّ، شمس الدين الخياط، الشاعر المشهور، الملقّب بضِفْدَع، حجَّ مع الصفديّ سنة (٧٥٥هـ)، فلم يترك في الركب أحدًا من الأعيان إلّا هجاه، فأجمعوا عليه بسبب ذلك ورفعوه إلى أمير الركب، فاستحضره وأهانه، وحلق لحيته وصرَفه يُنادى عليه، فانزعج من ذلك، ومات كمدًا بعد أن رجع من الحجّ سنة (٧٥٦هـ) في شهر محرّم، ودُفن على قارعة الطريق. ينظر: أعيان العصر وأعوان النصر: الصفدي ٥/ ٣٥٣، ٣٥٤.

فدفناه على قارعة الطريق، وانكفّ ذلك اللسان الذي كأنّه مِبرَدٌ وما حمل التطريق، فلو كان السَّريُّ الرَّفَّاءُ[٥٧] موجودًا لرثى الخياطَ وأبَّنه، ونقلَه بِلَبِنهِ الطّيّب إلى مقبره وجبَّنه[٥٨]، وعلى كلّ حال فقد راح إلى الله وأراح، والله يسامحه في يوم عَرْضه، ويعطّف عليه قلب مَنْ أخذ مِنْ عِرضه».

فالصفدي لم يقتصر في رحلته على استحضار أسماء من سبقه من الشعراء، وإنّما وسّع دائرته المعرفيّة ليوثّق وفاة معاصرِه الخيّاط، ويستدعي حضورُ اسم (الخياط) حضورَ اسم الشاعر (الرفّاء). وهذا ضرب من ضروب التشكيل المعرفيّ لبناء دلالات جديدة، يقتضيها حال الخطاب في النصّ الأدبيّ، وإبرازها في خضمّ عصر يموج بالعلوم والمعارف، ويمزج بين الأصالة والمعاصرة، مع المحافظة على الملامح الذاتيّة.

ويتجلّى حقل المعرفة الأدبيّة أيضًا في (التمثّل)، وهو أن يضرب الشاعر المثل بشخصيّة، أو بموضع، أو بحادثة، لاستحضار حقيقتها وظلالها، نراه - مثلًا - يقول[٥٩]: «فنمنا بها في ليل تِهامة الذي يُضرَبُ به المثلُ في اللذة، وقلنا: هذه مُدّةٌ مرَّت في السَّفْرَة البعيدة فَذَّة[٦٠]». يستحضر الصفدي التمثّل بلذّة ليل تهامة في سياق تعريجه على الأماكن الحجازيّة، فتأتلق الدلالة الإيحائيّة لهذا الاستحضار المعرفيّ لمفهوم المكان المقدّس،

(٥٧) شاعر من أهل الموصل، كان في صباه يرفو ويطرّز في دكان بها، فعُرف بالرَّفَّاءِ، قصد سيف الدولة بحلب فمدحه وأقام عنده مدّة، (ت٣٦٢هـ). الأعلام: الزركلي ٣/ ٨١.

(٥٨) جَبَّنَهُ: دفَنَهُ، والجبَّانةُ: المقبرةُ.

(٥٩) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١١٦.

(٦٠) يقولون: لشدّة وهج النهار وحرارته يهدأ الليل في تهامة، فيكون من أحسن الليالي، وهو أحسن من ليالي الحجاز. خزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجة الحموي ١/ ٢٩٩.

فالصفديّ لا يني يتفاعل مع المكان، فيستحضر محفوظه من التراث الأدبيّ؛ ليؤدّي المعنى المُراد بأسلوب موجز يجذب إلى عبق التراث وظروف تجربته، ويومئ في الوقت نفسه إلى أحوال تجربته الذاتيّة، وإلى عمق معرفته بأسرار كلام العرب وسعة ثقافته ومعارفه.

فالتفاعل مع المكان استدعى حضور المعرفة بالأمثال، ومن ذلك قوله[٦١]: «ثمّ إنّا مررنا بالبيادر، وكلٌّ منّا إلى ما هو أمامه مبادر، فرأينا من حالها ما عَجَّب، وقال لنا مرآها: أنا في الأعاجيب جُذَيلُها المحكَّك وعُذَيقُها المرجّب»[٦٢]. يربط الصفديّ ربطًا بديعًا بين غرابة المكان وما أثاره فيه من عَجَب ودهشة، وقول العرب: «أنا جُذيلُها المحكَّكُ وعُذيقُها المرجَّبُ»، فأنطق المكانَ المثلَ ليدلّ على صلابته ووقوفه في وجه الأنواء باذخًا طمّاحًا، يتباهى بشموخه ويفتخر بمرآه العجيب، فأظهر بذلك ثقافته الأدبيّة الواسعة، وقدرته على توظيفها بأسلوب موفّق يلائم المكان والزمان الجديدين.

ويعود ثانية ليستحضر مثلًا آخر، ولكن في شعره قائلًا[٦٣]:

أتينَا الرَّقْمتينِ وَقد أنافَا على جبلٍ تَراهُ كلُّ عينِ[٦٤]

(٦١) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١١٢.

(٦٢) القول للحُباب بن المنذر الأنصاريّ قاله يوم السّقيفة عند بيعة أبي بكر، يريد أنّه يُسْتَشْفَى برأيه وعقله، والجِذل المحكّك: عود ينصب في مَبَارك الإبل تتمرَّس به الإبل الجَرْبى، والعُذيق: تصغير عَذقٍ بالفتح، وهو النخلة، والترجيب هُنا: إرفاد النخلة من جانب ليمنعها من السقوط، وقيل: الترجيب: التعظيم، ورجَّب فلانٌ مولاه؛ أي: عظّمه. مجمع الأمثال: الميداني ١/ ٣١-٣٢.

(٦٣) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٧٩-٨٠.

(٦٤) الرَّقْمتان: تثنية الرَّقْمة، قال الأصمعيّ: الرقمتان إحداهما قرب المدينة والأخرى قرب البصرة، وأمّا التي في شعر زهير: ودار لها بالرقمتين، فقال الكلابي: الرقمتان بين جُرثُم =

كنَــدْمَانَي جَذِيمــةَ لــن يــزالا على روض السما مُتَنادمَين[٦٥]

استثمر الصفديّ المثل القديم (كندماني جَذِيمة) مسترجعًا صورتيهما في طول صحبتهما ومنادمتهما لجذيمة، ليفسح لنا المجال لنتخيّل طول الصحبة ودوام المودّة بين الرقمتين والجبل على مرّ الأيّام وكرّ الدهور.

وهكذا زخر النصّ الرحليّ للصفديّ باستصحاب الشعراء والأشعار والأمثال، ويعدّ توظيفها سمة بارزة في أدبه، وهي تشير إشارةً جليّة إلى اغترافه من بحر الحقل المعرفيّ الأدبيّ، وقدرته على استغلال عناصره ومعطياته التي من شأنها أن تمنح أدبه فضاء أدبيًّا واسعًا غنيًّا بالإشارات والدلالات، وكذلك تتبدّى شخصيّته الثقافيّة في عمق تجربته، وموسوعيّة معرفته، وحِذْقه مفردات التراث العربيّ، والتمرّس في استيعابه وهضمه، واستحضاره في الموضع الذي يتطلّبه المقام.

وشغلت **المعرفة التاريخيّة** حيّزًا بيّنًا من اهتمام الصفديّ في نصّه الرحليّ، إنّه يلوذ بالتاريخ، يأوي إليه، يستفيض في استدعاء حوادثه، وهو حين يطوف حول الكعبة المشرّفة، ويقبّل حجرها الأسود، يستعيد شريطًا مطوّلًا من تاريخ سرقة هذا الحجر الكريم على يد القرامطة، مشبّهًا إياه

= ومطلع الشمس بأرض بني أسد، والرقمتان أيضًا: موضع قرب المدينة نِهيان من أنهاء الحرَّة. معجم البلدان: ياقوت الحموي ٣/ ٥٨.

(٦٥) يعني: جَذِيمةَ الأبرش الأزدي، وكان ملكًا، وهو الذي قتلته الزبَّاء، وهو أول من أوقد بالشمع، ونصب المجانيق للحرب، ونَدْماناه يقال لهما: مالك وعقيل، والمثل يُضرَب بهما لطول ما نادماه، كما يُضرب باجتماع الفَرقدين. الكامل: المبرد ٣/ ١٤٤٣-١٤٤٤. وهو مأخوذ من بيت متمّم بن نُويرة في رثاء أخيه مالك:

وكنّا كنَدْمانَي جذيمةَ حِقبةً من الدهرِ حتى قيلَ: لن يتصدَّعا

بالخال على وجه الحسناء[٦٦]:

أَلَـمْ تَـرَ خالَهَـا المسـوَّدَ أضـحَى ... يفـوقُ علـى الصَّـباحِ المُسْـتطيرِ
تقبّلُـــهُ الطوائـــفُ طائفـــاتٍ ... فيَـا شـرفَ المباسـمِ والثغـورِ
فيـا ويـحَ القرامطـةِ الـذين اسـ ... ـتطالوا بـالعُتوِّ وبـالفُجورِ[٦٧]
لقَـدْ نقلـوه عُـدوانًا وظلمًـا ... إلـى هَجَـرٍ وجَـدُّوا فـي المسـيرِ
أَتَـوا أمـرًا عظيمًـا واسْـتحلّوا ... بـذلكَ حرمـةَ الأمـرِ الخطيـرِ
تغـرَّبَ عنـدَهم عِشْـرينَ عامًـا ... تلت عامينِ مِـنْ بعـدِ الكُسـورِ[٦٨]
ولكـنَّ المطيـعَ شَـرَاهُ مـنهم ... بخمسـينَ أَلْـفَ دينـارٍ نَضـيرِ
وجـاءَ لأخـذِه ابـنُ عُكَـيمِ مـنهمْ ... وكـانَ بـأمرِه غيـرَ البصـيرِ[٦٩]
ومـن خُبْـثٍ ومكـرٍ شـبَّهوه ... بـآخَرَ فعـلَ بُهتـانٍ وزُورِ
وجـاؤوا والعبيـرُ يضُـوعُ منْـهُ ... وقـدْ لفّـوه فـي خِـرَقِ الحريـرِ

(٦٦) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٢١ - ١٢٢.

(٦٧) ينظر: البداية والنهاية: ابن كثير الدمشقي، مج٦، ج١١، ص١٩٠ ذكر أخذ القرامطة الحجر الأسود إلى بلادهم؛ ومج٦، ج١١، ص٢٦٥ ردّ الحجر الأسود المكي إلى مكانه في البيت.

(٦٨) مدة احتجاز الحجر الأسود عند القرامطة اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة أيام.

(٦٩) جهّز الخليفةُ عبدَ الله بن عكيم المحدّث وجماعة معه إليهم، فأحضر أبو طاهر شهودًا على نواب الخليفة بتسليمه، ثمّ أخرج لهم أحد الحجرين المصنوعين، فقال لهم عبد الله بن عكيم: إنّ لنا في حجرنا علامة أنه لا يسخن بالنار، وثانية: أنّه لا يغوص في الماء، فألقاه في الماء وغاص، ثمّ ألقاه في النار فحمي وكاد يتشقق، فقال: ليس هذا بحجرنا، ثم أحضر الحجر الثاني المصنوع، وقد ضمّخه بالطيب، وغشّاه بالديباج يظهر كرامته، فصنع به عبد الله كما صنع بالأول، وقال: ليس هذا بحجرنا، فأحضر الحجر الأسود بعينه، فوضعه في الماء فطفا ولم يغص، وجعله في النار فلم يسخن، فقال: هذا حجرنا، فتعجب أبو طاهر.

فـــردَّده إلـــى أنْ كـــانَ حقًّـــا وأوضَـــحَ ذاكَ بـــالعلمِ الضَّـــرورِ
وقـــالَ لنـــا أَمَـــائِرُ فيـــه جـــاءَتْ رَويناهـــــا بإســـــنادٍ شـــــهير
علامتُـــهُ علـــى الأمـــواهِ يطفـــو ولـــمْ يتشـــظَّ مـــن نـــارِ الســـعيرِ
ويُحكَـــى أنّ أجْمَـــالًا ثلاثًـــا تَفَسَّـــخُ تحتَـــهُ عنـــدَ المـــرورِ
وحـــينَ أُعيـــدَ جَـــاء علـــى بعيـــرٍ ضعيفٍ طابَ هـذا مـن بعيـرِ![٧٠]

يُبنى التشكيل المعرفيّ في هذه الأبيات من حقل المعرفة التاريخيّة، للتعبير عن حادثة سرقة القرامطةِ الحجرَ الأسود سنة (٣١٧هـ)، بعد اعتدائهم على حُجّاج بيت الله الحرام، واستحلال حرماته، ونقل الحجر إلى بلدهم (هجر)، إلى أنِ استخلصه الخليفة العباسيّ بمساعيه الحميدة، بعد محاولات عديدة منهم لتزويره وتبديله. وتحفِل هذه البنية بحضور الحقل المعرفيّ التاريخيّ في تشكيل دلالة النصّ، وتبدأ باستفهام مبنيّ على قصد دلاليّ محوره الجذب والتشويق في المطلع لمواكبة الخبر التاريخيّ من البداية. ولا يقتصر الصفديّ على استدعاء هذا الحدث التاريخيّ باستلهام أسماء الأعلام (المطيع، ابن عكيم) فحسب، وإنّما يستقصيه ويدلّل عليه من معرفته الدينيّة (رويناها بإسناد شهير)، ونجد ذلك في الحقل الدلالي للمعجم الدينيّ (رواية، إسناد). وباستقراء هذه الأبيات نتعرّف الطريقة التي ينتهجها الصفديّ في إعادة تشكيل مخزونه المعرفيّ، والإفادة منه لبناء الدلالات الشعريّة، وقدرته على استيعاب المعارف والثقافات السائدة آنذاك، مع محاولته توثيق الصلة بين حاضر الأمّة، وماضٍ يمثّل الجذور التي أعطت الشخصيّة الإسلاميّة هويّتها. وغنيّ عن البيان ما في هذه الأبيات من

(٧٠) وقيل: إنّه هلك في نقل الحجر تحته أربعون جملًا، فلما أعيد كان على قَعُودٍ ضعيفٍ فَسَمِنَ.

تنوير للعقول وتمحيص للحقائق. وهذا المحتوى الإنسانيّ الرفيع، إلى النظم البيانيّ البديع، هو الذي جعلنا نسمّيها أشعارًا معرفيّة، لما فيها من صدق التجربة وجمال الأداء.

ثمّ يستكمل الصفديّ بناء التشكيل المعرفيّ في رحلته باستلهام حقل المعرفة التاريخيّة من خلال استحضار أسماء لها رصيدها التاريخيّ، وحضورها اللافت في وجدان المتلقّي. يقول(٧١): «ومَعانُ عند الحُجاج أولُ الحجاز وآخرُه، ومن معانَ يرجع المودِّع، وفيها تضيق الأخلاق، ويتفرَّق الرفاق، وتنحلّ النياق، وينحلُّ وَثاق الإنفاق، ويتسلّط الجمّال والعكّام على الحُجّاج، ويذلّون لهما كما ذلّ أهلُ الكوفة للحَجّاج»(٧٢).

إنّ صورة الجمّال والعكّام المتسلّطين على الحُجّاج استدعت صورة الحَجّاج بن يوسف الثقفي الذي ولي العراق فأخمد نار الفتن، وقطع دابر القوم المجرمين، فانصاع له أهل الكوفة صاغرين، وإنّ استحضار شخصيّة (الحَجّاج) هنا يظل دليلًا ناجعًا على مهارة الصفديّ في ربط الحاضر بالماضي، وبناء الدلالات الفكريّة اعتمادًا على الذاكرة التاريخيّة، وعلى حِذْقه بمفردات التاريخ الإسلاميّ.

وهكذا انسربت في رحلة الصفديّ الحوادث التاريخيّة بسلاسة باهرة، وهو ما يؤكّد معرفته التاريخيّة العميقة، وقدرته العالية على توظيف هذه الحوادث فيما يناسب موضوعه، حتى أضحى النصّ الرحليّ عنده يشكّل وثيقة مهمّة للوقائع والأيام، وسجلًّا تاريخيًّا للأبطال والأعلام، التزم فيه

(٧١) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٤٥.

(٧٢ العكّام: مَنْ يَعْكِمُ الأعدال على الحَمولة، وعكَم المتاع يعكِمه عكمًا: شدّه بثوب، وهو أن يبسُطَه ويجعلَ فيه المتاعَ ويشدَّه.

تبليغ فكرة، أو تأدية رسالة، أو توثيق حادثة، فضلًا عمّا يتركه هذا التصوّر الجديد من مظهر فنّيّ جماليّ، يتّضح في أسلوب الاستدعاء التاريخيّ لتلك الحادثة في بنية النصّ الشعريّ.

وتشتمل رحلة الصفديّ على معارفَ أخرى وفنونٍ شتّى من القول، وبعضها ممّا يتضمّن معارف وثقافات قلّما نعثر عليها في رِحَلِ غيره، وبعضها الآخر ممّا يحتوي على صنعة أدبيّة فريدة، وطراز بديع من الصياغة الأدبيّة. وتكاد **المعرفة الجغرافيّة**(٧٣) تسيطر على أجزاء الرحلة كلّها، فمذ مضى الصفديّ في رحلته لا يني يصف المراحل التي قطعها من دمشق إلى المدينة، فمكّة، وشعائر الحجّ والزيارة، فجال جولات معرفيّة في الأماكن جميعها، تسمية ووصفًا شعرًا ونثرًا، نجد هذا - مثلًا - في أثناء تعريجهم على وادي الأخيضر(٧٤): «وسِرْنا في بقيّة الوادي عامَّةَ نهارنا، وقرأنا فيه أسفارَ أسفارِنا، وعلمنا سرَّ تسميته بالأُخيضر وما قُصِدَ بذلك، وما فيه من النكتة المطلوبة هنالك، وهي طمأنينة نفس المسافر، ومتعة لذواتِ الخُفِّ والحافر(٧٥)، فقلت:

عَبَرنا على الوادي الأُخيضرِ عندَما حثثنا المطايا واطمأنّتْ مناكبُه
وأحسَبُه قدْ كان أخضرَ إنّما تلظَّى بهِ صَبٌّ فَجَفَّتْ جوانبُه»

يتفاعل الصفديّ مع طبيعة المكان الذي حلَّ فيه الركب، ويشخّص ملامحه الثقافيّة، فهو لم يطمئن قلبه وتقرَّ عينه حتى عاد إلى كتبه، وقرأ عن سبب تسميته بالوادي الأخيضر، وهو يراه ماحلًا قاحلًا، فوجد هذه التسمية الرقيقة الموحية بالخضرة تنشرح لها النفوس، وتغتبط بها الأفئدة، في فيح

(٧٣) ما منعني من الإطالة في هذا النوع من المعارف إلا ضيق المقام ومراعاة المناسبة.
(٧٤) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٦٠.
(٧٥) ذوات الخف والحافر: أي الإبل والخيل.

الصحراء وقيظها، فتسكن وتهدأ.

ومن اللطائف، وهو يرسم معالم الأمكنة في طريق رحلته، أنّه يصوّر لنا عواطفه، ويصف حاله، ومن ذلك قوله لما وصلوا بطن وادي النار(٧٦): «ودخلنا واديًا يُعرف بوادي النار، وليسَ لمنْ دخلَه قرار، فارتاعَ كلٌّ منّا من اسمه، والتاع من حدّه ورسمه، وخفنا من حرِّه، وعدم بِرّه في بَرّه، فأجرى الله تعالى على عادة لطفهِ الخفيّة، فلم نجد في ذلك الوادي شُواظًا، ولم نذقْ فيه من الشدةِ لماظًا، بل هبتْ علينا نسمةٌ لواؤُها خفّاق، وريحٌ ليّنة لو رقدَ المخمورُ بها لأفاق»(٧٧).

في هذا المكان تستحضر مخيّلة الصفديّ نارَ جهنّم، إلّا أنّ ألطاف الله الخفيّة عمّتهم، وتحوّل الحرّ ووهجه إلى ظلال رخيّة، ونسمات نديّة، فكان بردًا وسلامًا عليهم. وهذا النوع من المعرفة الجغرافيّة وفير غزير في رحلته، ويكفينا أن نحيل على هذين المثالين اللذين يدلّان على عارضة الصفديّ، وقوّته في التعبير عن أحواله، وما يجول في ذهنه من المعاني.

وتقدّم هذه الرحلة مسردًا –إن صحّ التعبير– بأسماء الأماكن التي عرّج عليها الركب الشاميّ، وتفصيلات مواقعها، وتسجيل حوادثها، فيما يمكن أن نطلق عليه (النصّ التوثيقيّ) الأمر الذي يشير إلى مدى نشاط الأدباء المعرفيّ آنذاك، وازدهار المجالس العلميّة، وانتشار العلوم الشرعيّة والكونيّة والتطبيقيّة.

---

(٧٦) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٠٤.

(٧٧) الشواظ: لهب النار، واللَّماظ: هو ذوق الماء بطرف اللسان، ويقال: ما ذاق لَماظًا؛ أي: شيئًا. وهذه العبارة "لو رَقَدَ المخمورُ بها لأفاق" منتزعة من كلام الفتح بن خاقان. يتيمة الدهر: الثعالبي ٣/ ٦٥١.

ويستمدّ الصفديّ من **الحقل المعرفيّ النحويّ** بعض المصطلحات النحويّة ليجوب بنا الروابي والوهاد، راكبين النوق الجياد، فيقول[٧٨]:

وللسُّرى عاملٌ في اليَعملات إذا سارت فمنخفضٌ منّا ومنتصبُ[٧٩]

إنّه يستعمل ثلاثة مصطلحات نحويّة في هذا البيت (العامل، الخفض، النصب) لتتشكّل في ظلالها صورة السير ليلًا في هذه الرحلة الحجازيّة، إنّها الصورة الضدّيّة بين الخفض والنصب، ويأتي لفظ (عاملٌ) في سياقه التركيبيّ ليؤدّيَ دلالة ظاهريّة هي المعنى الاصطلاحيّ النحويّ، ودلالة بنيويّة يسند فيها لفظ (عامل) إلى ما يجري من هجوم الليل على المسافرين، وعمله في الخفض والنصب في الأرجاء. ويمضي في توليد المعاني مِنِ استلهام حقل المعرفة النحويّة بقوله[٨٠]:

كمْ جَمَلٍ مُنتَصبٍ للشَّقَا ما جرَّه الجَمَّالُ إلا انكسَرْ!

وكان في الركبِ يُرى مُبتدًا فما لهُ من بعدِ هذا خَبَرْ

يقوم البيتان على المصطلحات النحويّة (النصب والجر والكسر، والمبتدأ والخبر)، وقد أوحى هذا الاستلهام للحقل المعرفيّ النحويّ بالإحساس بمرارة الرحلة ومعاناة الجمّال مع جِماله، والوقوف على مدى التوجّع والشعور بالكسر والتحوّل إلى خبر.

ويستلهم من **الحقل المعرفيّ البلاغيّ** تجسيدًا لمعاناة اغترابه، فيقول[٨١]:

---

(٧٨) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٩٥.

(٧٩) اليعملات: مفرده (اليعملة): الناقة النجيبة المعتملة المطبوعة على العمل، أو الناقة السريعة.

(٨٠) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١١٤.

(٨١) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٤٣.

كَبِــدي تَلتظِــي وعَيْنــي تَهْمِــي هكــذا فلــيكنْ بــديعُ الطبــاقِ

ونلمح هنا ثنائيّة تنتج من المعرفة البلاغيّة التي تتشكّل منها الصورة الضدّيّة، فاجتماع التلظّي والاشتعال للكبد والانطفاء بماء العيون التي تهمي، يشكّل صورة مميّزة لأسلوب الصفديّ في استلهام خبراته المعرفيّة البلاغيّة لبناء معاني اشتعال الشوق وانطفائه، وتأتي هذه المعاني مصبوغة باستلهام الشاعر لمصطلحي (البديع والطباق) من علم البلاغة. ويقول مستخدمًا المصطلح البلاغيّ (المجاز)[٨٢]:

لم يطبْ لي مِنْ بعدِ طيبةَ عيشٌ مُــذْ نزلنَــا بــرأسِ وادي العقيــقِ
وكــأنّي بــه تَســمّى مجَــازًا بعقيــقٍ وعَبْرتــي بحقيــقِ[٨٣]

يظهر في البيت الأخير مصطلح بلاغيّ هو (المجاز) ليؤدّي دلالتين في السياق، دلالة ظاهريّة هي الطريق والمَعْبر، ودلالة بِنيويّة عميقة هي خلاف الحقيقة، فهو لم يستطع أن يتجاوز حال التوجّع والألم بعد اجتياز وادي العقيق، مودّعًا الحبيب ﷺ وقافلًا إلى ديار الشام. وهذا يستدعي عنوان كتاب الصفدي (حقيقة المجاز إلى الحجاز)، وما فيه من جناس بين (المجاز والحجاز) مؤكّدًا واقعيّة رحلته إلى الديار الحجازيّة، فضلًا عنِ الإيقاع المؤثّر في الاستحواذ على المتلقّي من البداية.

إنّ الصفديّ يتّكئ على مخزونه المعرفيّ والثقافيّ في رحلته كلّها، فهو حين يصل إلى أرض الحبيب المصطفى ﷺ يبحث عن فلسفة معنى الحبّ،

(٨٢) المصدر نفسه: ١٠٠.

(٨٣) «المجازُ: مَفْعل من جاز الشيء يجوزه: إذا تعدّاه، وإذا عدل باللفظ عمّا يوجبه أَصْلُ اللغة وصفه بأنّه مجاز على معنى أنّهم جازوا به موضعه الأصليّ، أو جاز هو مكانه الذي وُضع فيه أوَّلًا». معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها: أحمد مطلوب، ص: ٥٩٠.

فيقول(٨٤):

يا صاحِ هذا البانُ بانَ فَعُجْ به أَوَمَا رأيتَ القلبَ طارَ بعجبِهِ؟
فاقصدْ حِمَاه وسِرْ بهِ مترفقًا وانشدْ فؤادي في ملاعبِ سِرْبِهِ
فإذا وصلت إلى هناكَ فسَلْ بهِ: مَنْ ذا رأى إيجابَه في سَلْبه؟

يُنشئ الشاعر حوارًا فلسفيًّا معتمدًا أسلوب (التجريد)، إذ يُجري الخطاب على غيره، وهو يريد نفسه(٨٥)، فيسائل صاحبه عن حال قلبه المتيّم، وكيف طار منه وسبقه إلى الحبيب، ثمّ يستعمل فعلَيِ الأمر (اقصدْ- انشدْ)؛ ليبيّن له أنّه لن يجد قلبه المتيّم إلا في ديار الأحبة، وهُنا يسفر الحوار المنطقيّ عن مفهوم (التجريب) الفلسفيّ الذي يعتمد براهين ملموسة، فنجد الصفديّ يعود فيسأل عن قلبه الهائم في ثنائيّة ضديّة (الإيجاب والسلب). إنّه يبحث عن فلسفة معنى الحبّ، فيجد أنّ وجوب وصاله وقربه لا يكون إلّا في سلب الحبيب لقلبه وللبّه. وهكذا يشرك الصفديّ في تعليل حبّه **حقل المعرفة الفلسفيّة** مطمئنًّا إلى ما وصل إليه من تعليل الظاهرة بسعة خبرته وتجربته.

لقد تنوّعت مصادر الاستلهام المعرفيّ في رحلة الصفديّ لأداء فريضة الحجّ، وامتزجت هذه المصادر مع روح النصّ الرحليّ، لأنّها مستمدّة من معارف وثقافات تتّصل به، كالدين والتاريخ والقصص والنحو والبلاغة والفلسفة، لكن الطريف أن يستلهم الصفديّ المعارف التطبيقيّة في بناء نصوصه الأدبيّة، فيكثر في رحلته من استلهام **الحقل المعرفيّ الفلكيّ**؛

(٨٤) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٣٥.

(٨٥) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها: أحمد مطلوب، ص: ٢٥٩.

لاحتياجهم إليه في درب الرحلة الطويل. ومن ذلك قوله[٨٦]: «وكنّا قبل وصولنا إلى ثَمَدِ الرُّومِ في الليلِ، واعتلاقِ سُهيلٍ[٨٧] منَ الأفقِ بالذيل، قد عَبرْنا بمكانٍ يُعرف بمفرَش الرُّزّ، والنجومُ قد ألقتْ ضوءها عليه حتى انتُهبَ حسنُه وسُلبَ وابتُزّ، فقلتُ:

قَدْ أتى الركبُ مَفرَشَ الرُّزِّ ليلًا ... فَزكَا منزلًا وطابَ مَحَلّا
واستضاءَ الفَضَا بزُهْرِ الدياجي ... فَغَدا الرُّزُّ بالنجوم مُحَلّى»

يرسم الصفديّ لوحة فلكيّة ليليّة هادئة، لمّا افترشوا (مفرش الرزّ)، ولمع نجم سهيل في الأفق، وزيّنت النجومُ السماء، وملأت الكونَ بالأضواء.

أمّا المشهد الذي يخلب اللبّ ويخطف الأبصار حقًّا، فهو مشهد الكعبة المشرّفة ليلًا. يقول الصفديّ[٨٨]:

إذا لاحتْ لنَا ذاتُ السُّتورِ ... فأهونْ بالشموسِ وبالبدورِ!
لأنّ جمالَها في العينِ أجلى ... وأعلقُ بالقلوبِ وبالصدورِ
سوادُ ستورِها يحوي سَنَاها ... كَلَيلٍ زِيْنَ بالشِّعْرى العَبُورِ[٨٩]
وما للصَّبِّ إن وافَى حِمَاهَا ... سوى حسنِ التأدّبِ من ظهيرِ
وتعفيرِ الخدودِ على ثراهَا ... وإسبالِ الدموعِ على النحورِ
وإدمانِ الخضوعِ بلا مَلَالٍ ... بقلبٍ من خطايَاه كسيرِ
وتكرارِ التملّي بالتجلّي ... ليرجعَ وهو ذو بصرٍ حسيرِ

(٨٦) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٦٤.

(٨٧) ثَمَد الروم: موضع بين الشام والمدينة، قرب الحجر، مراصد الاطلاع: ١/ ٣٠٠، وسُهَيْلٌ: نجمٌ عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القيظ، القاموس المحيط (سهل).

(٨٨) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٢٠-١٢١.

(٨٩) الشِّعْرَى العَبُورُ، والشِّعْرَى الغُمَيْصاءُ: أختا سُهَيلٍ، القاموس المحيط (شعر).

يأتي الحقل المعرفيّ الفلكي (الشموس، البدور، الشعرى العبور) مناسبًا لهيبة المشهد وجلاله، فالكعبة بجمالها وجلالها وستورها السوداء أشبه بليل زيّنته النجوم، فأفاضت عليه من الأنوار والإشراقات والتجلّيات، ما يهوّن من شأن الشمس والقمر. ويجمع الصفديّ في هذه اللوحة الفنّيّة أنساقًا معرفيّة متنوّعة لتأدية المقاصد الدلاليّة التي يرمي إليها، فهو يغترف من حقل المعرفة الدينيّة في اقتباسه من القرآن الكريم في البيت الثالث: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩]، وفي البيت الأخير أيضًا اقتباس من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٤]، لينهي أبياته بالتأمّل والتمتّع بفيوض التجلّيات من ذات الستور. ولا يظهر هذا في نصّ رحليّ واحد من نصوصه، وإنّما يشيع في الرحلة كلّها؛ ليكوّن ظاهرة واضحة جديرة بالدَّرْس والبحث، ويتجلّى ذلك في تناغم دلاليّ يمكننا ملاحظته من خلال حضور العلوم والمعارف الإنسانيّة والأدبيّة والدينيّة، فضلًا عن المعارف التطبيقيّة في نصّ واحد.

ويستدعي النصّ الرحليّ حقلًا معرفيًّا جديدًا يحرص الشاعر على الإفادة منه في شعاب رحلته، إنّه **حقل المعرفة الرياضيّة**. يقول(٩٠): «ثمّ إنّا أقمنا في مدينة العُلا عدد أقسام الكلمة، أو نهاية الطلاق التي هي في الشرع مُلتَزَمة». لم يقل لنا الصفدي إنّه أقام في مدينة العُلا ثلاثة أيام، وإنّما أوحى إلينا بالعدد من خلال معرفتنا عدد أقسام الكلمة وعدد الطلقات في الشرع، ربما أراد أن يخفّف من جفاف المصطلحات العلميّة، وجفاف الصحراء، وظمأ الهواجر. وما يؤكّد هذا قوله في الطريق(٩١): «ولم نزل في وَخْدٍ

(٩٠) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٧١.

(٩١) المصدر نفسه: ٦٥.

وذَمِيْلٍ، وقطع الفيافي التي تَكْحُلُ العينَ بميلٍ منها بعد ميل، حتى وصلنا إلى جبل الطاقة، والركبُ في أمن من الطليعة إلى الساقة، إلا أنّ الماء عزَّ قليلًا، وكان ناظرُ الوصول إليه كليلًا، حتّى إنّني سقيتُ فرسي بعدّةِ الأصابع في الكفّ، أو المفاعيل التي ينصبها النحوي من غير منع ولا كفّ[٩٢]، وقلت:

فَرَسي بهِ زادَ الظَّمَا وكذاكَ كنتُ أنا مَعَهْ
فأنَا شربتُ بدرهم وبخمسةٍ ذو الأربعه»

يحاول الصفدي إعادة إنتاج المعرفة الرياضيّة بمصطلحاتها الجافّة؛ لتغدو ذات دلالة في سياقها الأدبيّ، وتأتي هذه الدلالة من أنّها أداة لرسم صورة تفصيليّة لما أصابهم من حرّ وظمأ في الهاجرة، حتى سقى فرسه ذات الأطراف الأربعة بأصابعه الخمسة مجتمعة، أو بعدد المفاعيل الخمسة في العربيّة، فهو لم يذكر الرَّقْمين خمسة أو أربعة؛ كيلا تبدو غريبة عن روح النصّ الأدبيّ أو مقحمة فيه. وربّما أسهم هذا في إبراز المظهر الجماليّ لعدد الأيام التي قضاها الصفديّ في مكّة بقوله[٩٣]: «فكان مجموعُ مقامنا بمكّة عدد حملة العرش العظيم يوم القيامة، وأبوابِ الجنّة التي وعد الله بها أهل الكرامة».

لم يقل: إنّنا أقمنا ثمانية أيّام في مكّة، وإنّما أوحى إلى المتلقّي بقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وذكّره بحديث رسول الله ﷺ: «في الجنّة ثمانيةُ أبوابٍ فيها بابٌ يُسمّى الريّانَ لا يدخلُه إلّا

(٩٢) الوَخد والذميل: ضربان من سير الإبل، والفيافي: جمع الفيف، وهي المفازة التي لا ماء فيها مع الاستواء والسعة، والساقة: أي: المؤخّرة، والمفاعيل الخمسة في اللغة العربيّة: المفعول به، والمفعول المطلق، والمفعول فيه، والمفعول له، والمفعول معه.

(٩٣) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١٣٢.

الصائمونَ»[٩٤]، فغدا الحقل الرياضيّ أداة معرفيّة استثمرها الصفديّ في التشكيل الفكريّ والثقافيّ لهذه الرحلة.

ويستوحي الصفديّ من الحقل المعرفيّ التطبيقيّ بعض **المصطلحات الهندسيّة** التي نجدها في مثل قوله[٩٥]: «ثمّ إنّا توجَّهنا من تلك المنزلة إلى جهة العُلا...، فوصلنا إلى مَبْرَكِ ناقة صالح، وقد أخذ الكَلَالُ حقَّه من الصالح والطالح، فرأينا منظرًا قد هال، ورملًا كثيبُه قد انهال، كأنّ المَبْرَكَ جبلٌ واحدٌ انفلق فلقتين، وانفرق من أعلاه إلى أسفله على خطّ مستقيم فرقتين، مع ارتفاعٍ لا تبلغُه غَلوَةُ سهم، ولا يكاد يصلُ غايتَه مدُّ بصرٍ ولا مدى وهم، وقلت:

ورأينا مُدْنًا لصالحِ تُعزى ... مثلَ ما جاءَ عندنا في التلاوهْ
مَدَّتِ الأرضُ بالجبال خِوانًا ... ما عليها من النباتِ طَلاوهْ
وصحونُ الصخورِ قد نحتوهَا ... فعليهَا من النحيت حلاوهْ»[٩٦]

يختار الصفديّ من المصطلحات الهندسيّة ما يناسب وصف مدينة العلا (واحد، فلقتين، أعلى، أسفل، خط مستقيم)، ويستخدم (لا تبلغه غلوة سهم، مد بصر، مدى وهم) للتعبير عن الأمداء والأبعاد، ويشبه الصخور بالموائد الممتدّة والصحون المنحوتة (نحتوها، نحيت)؛ ونجد في جمع الكثرة (صحون، صخور) إيحاء بالاتّساع والفخامة، فيُعيد تشكيل معرفته الهندسيّة ليبرز الجانب المعماريّ في هندسة صخور هذه المدينة الأثريّة.

ثمّ يجيل بصره ثانية مأخوذًا بجمال هذه الجبال، مدهوشًا بجلال هندستها وروعة نحتها وتصميمها، بعد أن أثّرت فيها عوامل الحتّ

(٩٤) صحيح البخاريّ: باب صفة أبواب الجنة، كتاب بدء الخلق، رقم الحديث (٣٢٥٧).
(٩٥) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٦٦، ٦٧.
(٩٦) غلوة سهم: أي: رمية سهم أبعد ما يقدر عليه الرامي، والخِوان: المائدة.

والتعرية، فيقول(٩٧):

فـي جبـالِ العُـلا لمَـنْ مـرَّ فيهـا ورأى شـــكلها مَـــرَاءٍ عجيبـــهْ
نســفتها الريــاحُ والغيــثُ حتّــى بــرزتْ فــي تَشــكُّلاتٍ غريبــهْ

إنّ هـذه البراعـة فـي بنـاء الصـورة التفصـيليّة لمشـهد هاتيـك الجبـال المستوحاة من معجم هندسيّ فنيّ (شكلها، مراء عجيبـة، بـرزت، تشـكّلات غريبة) أسهمت في استثمار تلـك المعرفـة فـي خدمـة الدلالـة الشـعريّة فـي استحضار صورة جبال مدينة العلا وتشكيلها في مخيّلة المتلقّي.

وينبغي لنا ألّا ننسى أنّ معرفة الأديب كانت عصـرئذٍ معرفـة موسـوعيّة، تشمل علوم الإسلام والتاريخ والمنطق والفلـك، ويتبـدّى لنـا الصـفديّ فـي هذه الرحلة موسوعة متحرّكة لما أورده فيها من حقول معرفيّة ومصـطلحات علميّة، نذكر منها على سبيل المثال قولـه(٩٨): «مـع أنّـا سـرنا فـي هَزِيْـعٍ مـنَ الدُّجى، والصبح يكاد يطلّ علينا من الشـرق، فنجـد البـاب مرتجًـا، فأدخـل النعاسُ عواملَه على الرفاق فخفض ورفع، وسـجد كـلٌّ علـى كـورهِ بعـد مـا ركع، إلى أن فتقت جَفيرَ الليل شفرةٌ من صباحه، وأخـذ الـديك علـى عادتـه في صياحه، فقلت:

إنَّ السُّـــرى أغمـــضَ أجفانَنـــا وللنجـــومِ الزُّهْـــرِ إطـــراقُ
والليـــلُ بحـــرٌ قـــد غَـــدَا شَـــرَقُه ومـــاؤه بالصـــبحِ رَقـــراقُ
وَشَـــجَّهُ الفجـــرُ بـــرأسِ الـــدّجى بالشـــفقِ المحمـــرّ سِـــمحَاقُ»(٩٩)

(٩٧) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٦٩.

(٩٨) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٧٥-٧٦.

(٩٩) الهزيع: طائفة من الليل نحو ثلثه وربعه. والكور: بالضم: الرَّحْل، أي: رحل البعيـر، أو هو الرحل بأداته، كالسرج وآلته للفرس. والجَفير: جَعبَةٌ من جلودٍ لا خشب فيها، أو =

إنّها صورة انبلاج الفجر في الفيافي، إذ يضفي الشفق على سحب السماء لونه الأحمر القاني، فيبدو وكأنّ الفجر قد شجّه فأدمى رأسه، فيتجلّى الأثر المعرفيّ مصطبغًا بلفظ (السمحاق) العلميّ.

وتتسلّل سمة العصر المعرفيّة من خلال توظيف بعض المصطلحات في وصف الأدوات والوسائل إذا عَدَدْنا هذه الأدوات نتاجًا علميًّا محضًا. ومن ذلك قوله في وصف محارة[١٠٠]:

ركبتُ في محارةٍ وسْط الهوا معلَّقه[١٠١]
كأنّني فستقةٌ في قشرها مُلَقْلَقه
رأسيَ سِندانٌ لها وسَقفُها لي مِطْرقه
أُدَقُّ كلَّ لحظةٍ دقًّا بغير شَفَقَه
كيفَ الخلاصُ بعد ما وقفتُ وسطَ البُوتقه؟!

تفيض المقطوعة بروح العصر العلميّة، فهو في محارة عتيقة، مشبّهًا نفسه بالفستقة، مستعملًا بعض الأدوات الحضاريّة (محارة، سِندان، مطرقة، بُوتقة). وأكثر الصفديّ في رحلته من استعمال ألفاظ الزينة والعطور والحليّ والجواهر، كقوله[١٠٢]: «ولما أسفرَ الصباح، وأظهر سِرَّه مِنْ صدر الشرق وباح، أخذ الرَّكْبُ في التحمّل الذي هو معتاد، ومدّ لذلك أطناب

= من خشب لا جلود فيها، وقيل: الكنانة، أو شبهها إلا أنّه أوسع منها، يُجعل فيها نُشّاب كثير، والمراد به هنا ظلمة الليل. والسمحاقُ: قِشرةٌ رقيقةٌ فوق عظم الرأس، ومن المجاز: سماحيقُ السماءِ: هي القِطَعُ الرِّقاق من الغيم على التشبيه بالقشرة الرقيقة.

(١٠٠) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٧٣، ٧٤.

(١٠١) المحارة: محمل الحاج، وتسمّى الصدفة، وهي شبه الهودج.

(١٠٢) حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٨٥.

زينةٍ يقصرُ عنها فرعون ذو الأوتاد، وسار المحمل كالعروس إذا زُفَّتْ في تهاديها، وأثقل الحلْيُ مكان جيدها وهواديها، وخرج أمير المدينة لتلقِّينا، وإعلاء رتبتنا وترقينا».

هكذا تجلّى الأثر المعرفيّ متشرّبًا بألفاظ الحضارة وإيحاءاتها، ليستعير من حضورها تأنّق الناس، عاكسًا وعيه الجماليّ فيما يبصر، فضلًا عن تأثيرات الآخر المتعدّدة التي انعكست في مناحي الحياة عامّة، فكان منها شيوع الغناء وأدواته. ومن ذلك قوله[١٠٣]: «نفرتْ بين أيدي الرُّماةِ ظباءٌ تروقُ النواظرَ، وتفوقُ النجومَ الزواهرَ، فنظروا إليها نظرَ الصُّيَّامِ إلى تُفَّاحِ البساتين، أو المغنّين إذا لمحوا العيدان، وقد مُنعوا عَفق الدساتين»[١٠٤]. يذكر الصفديّ من أجزاء العود (الدساتين، العفق)، والمراد من العفق القبض والضغط بالأصبع على الأوتار في ضرب العود. وهذا يؤكّد نضج هذا الفنّ عنده، والحسّ النقديّ الذي تجلّى في تذوّقه للأنغام والغناء.

ونتلمّس في هذا النصّ الرحليّ أيضًا توثيقًا لأسماء بعض النباتات المتناثرة في درب الرحلة الحجازيّة[١٠٥]: «ووافينا مُنَيخِرَ بعدَ فوات العصرِ، ولمّا ولّى النهارُ وشمّرَ الذيل، وذوى ياسمينُ الضياءِ، وأينعَ سوسنُ الليل، استهلَّ لنا هلالُ ذي القَعْدة، وهو كالسنانِ المنعطفِ فوقَ الصَّعدَة..، ثمّ إنّا ظعنّا من منيخِر، والهواءُ إذا سُدَّ منه مِنخَرٌ جاش مِنخر، إلا أنّه أهدى لنا

(١٠٣)حقيقة المجاز إلى الحجاز: ١١٢، ١١٣.

(١٠٤)العَفق في اصطلاح المغنين: بمعنى القبض والضغط بالأصبع على الأوتار في ضرب العود، والدساتين: هي الرباطات التي توضع الأصابع عليها، واحدها: دستان. ينظر: مفاتيح العلوم: الخوارزميّ، ص:٢٦٠.

(١٠٥)حقيقة المجاز إلى الحجاز: ٤٨، ٤٩.

أنفاسَ الجليلِ والإذخر، وعمَّ ببرده المفرطِ للمتقدّمِ والمتأخّرِ...»[١٠٦].

تتجلّى معارفه العلميّة من خلال توثيق أسماء بعض أنواع النبات (الياسمين، السوسن، الجليل، الإذخر)؛ فقد جذبه إلى الجليل والإذخر ما تنسمه من روائح الطيب، وإلى الياسمين والسوسن ما في منظره من حسن وزينة، فهو في هذا النص يوثق الخبرات المعرفيّة، ويؤكّد حضور العلوم التطبيقيّة في نسق التشكيل المعرفيّ العامّ في النصّ الرحليّ الذي أثبت قدرته الأدبيّة من جهة، وتفاعله مع الوسط العلميّ والثقافيّ الذي يحيا فيه من جهة أخرى.

وهكذا يتجلّى التشكيل المعرفيّ في رحلة الصفديّ الحجازيّة من خلال المزج بين النصّ الرحليّ وملامح العلم والثقافة وروح العصر السائدة التي تبدّت فيه. والأمر الذي يلفت الانتباه في هذه الرحلة أنّ بين سطورها حاجاتٍ أخرَ يقضيها الصفديّ، وفِكَرًا قيّمة يؤدّيها، إلى جانب الإمتاع والترويح عن النفوس المكدودة بمتاعب هذه الرحلة ومصاعبها، فكان يسرّي عن الأفئدة، ويسلّي الحجيج بمعنى رائق، أو نكتة رقيقة، أو نادرة رشيقة، تبعث على إثارة الدهشة وتحقق الإمتاع.

الخاتمة ونتائج البحث:

رصد البحث المخزون المعرفيّ في رحلة الصفديّ إلى الديار الحجازيّة المقدّسة في كتابه الموسوم بـ (حقيقة المجاز إلى الحجاز)، ووقف على أسلوبه في الإفادة من ذخيرته المعرفيّة في بناء دلالة النصّ الرحليّ، وعمل على تحديد أهمّ البنى التي شكّلت الخطاب في هذا النصّ،

(١٠٦) الإذخِر: حشيشة طيبة الرائحة تُسْقَفُ بها البيوت، وتُجعل في القبور.

من خلال إعادة تشكيل المعرفة المكتسبة سابقًا، ودمجها بالبنية اللغوية ومقاربة وظائفها الدلاليّة، علمًا بأنّ الحقول المعرفيّة التي جاء بها الصفديّ بجزئياتها المتداخلة في نسيج الرحلة العام لا يشعر القارئ معها أنّها أشتات متناثرة هنا وهناك، إنّما أُعيد توظيفها وتشكيلها وأُلبست جميعًا لبوسًا جديدًا، وأسبغ عليها الصفديّ من نفسه وروحه حتى غدت جسدًا واحدًا، وأنّها كلّها على اختلاف مصادرها وتشكّلاتها الجديدة في الكتاب يربطها خيط دقيق هو العاطفة الصادقة والأشواق الدفينة لزيارة بيت الله العتيق ومدينة الحبيب ﷺ.

وقد توصّل البحث إلى عدد من النتائج الرئيسة، من أهمّها:

- شكّل أدب الرحلة مصدرًا من مصادر العلم والمعرفة في العصر المملوكي، فقد قام على مخزون فكريّ، وذخيرة معرفيّة متنوّعة المصادر: (الدين، التاريخ، الشعر، اللغة، النحو، البلاغة، الأمثال، الفلسفة، الفلك، الجغرافيا، الرياضيّات، الفنّ)، وربّما أمكننا أن نستقصيَ منها مسردًا علميًّا أدبيًّا يتضمّن الحقائق العلميّة والمصطلحات، ومعجمًا لغويًّا، ومسندًا بأسماء العلماء والأدباء وأصحاب المعارف.
- جمع أدب الرحلة في هذا العصر المعارف الإنسانيّة، مُبديًا ثمرة التفاعل بين الإنسان وبيئته، مجسّدًا أفكاره وطريقته في التفكير والحياة.
- تبدّى المفهوم الوظيفيّ للأدب الذي صار يهتمّ بتوثيق الحوادث، وتاريخ الوقائع، وتراجم الأعلام من خلال هذا الكتاب.

- عُني الصفدي بتحديد الأماكن وتسجيل الحوادث فيما يمكن أن نطلق عليه (النصّ الأدبيّ التوثيقيّ).
- امتلك الصفديّ وعيًا جماليًّا في تضمين نصّه الرحليّ ثقافة جماليّة خاصّة، وبرز وعيه الثقافيّ في رسم مراحل الرحلة وتجلّياتها، وتغلغل روح العصر فيها.
- اتّسمت الشخصيّة الثقافيّة للنصّ الرحليّ بأنّها مستجيبة للمعاصرة التي تجلّت بوصف الأدوات الحضاريّة، إلّا أنّها لم تذب في خضم هذه المعاصرة والتسارع الحضاريّ، وإنّما حافظت على أصالتها، فهي شديدة اللصوق بالتراث، كثيرة الاستحضار له.
- دلّ هذا النصّ الرحليّ على سعة ثقافة الأدباء في القرن الهجريّ الثامن، وعمق تجربتهم، وموسوعيّة معارفهم، وعلى حِذْقهم مفردات التراث العربيّ والقدرة على توظيفها.

* * *

المصادر والمراجع

- **الأعلام**: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٢، ١٩٧٧م.
- **أعيان العصر وأعوان النصر**: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: د. علي أبو زيد ورفاقه، دار الفكر المعاصر بيروت- دار الفكر دمشق، ١٩٩٨م.
- **البداية والنهاية**: ابن كثير الدمشقي، تحقيق: عبد الرحمن اللادقي ومحمد غازي بيضون، دار المعرفة، ط٧، بيروت، ٢٠٠٢م.
- **حقيقة المجاز إلى الحجاز**: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: د. نهى عبد الرزاق الحفناوي، دار السويدي للنشر والتوزيع أبو ظبي والمؤسسة العامّة للدراسات والنشر، ط١، بيروت- لبنان، ٢٠٢٣م.
- **خزانة الأدب وغاية الأرب**: تقيّ الدين ابن حجة الحموي، تحقيق: د. محمد ناجي بن عمر، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٨م.
- **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**: أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق: سالم الكرنكوي ، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- **ديوان البحتري**: دار صادر، بيروت، د.ت.
- **ديوان ذي الرمة**: شرح الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، ط٢، بيروت، ١٩٩٦م.
- **شرح ديوان المتنبي**: وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، راجعه: د. يوسف الشيخ ومحمد البقاعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١٠م.

- **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق: عبده علي كوشك، مكتبة الغزالي دمشق- دار الفيحاء - بيروت، ٢٠٠٠م.
- **صحيح البخاري**: لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار العلوم الإنسانيّة، ط٢، دمشق، ١٩٩٣م.
- **صحيح مسلم**: لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار السلام - الرياض، دار الفيحاء - دمشق، ١٩٩٨م.
- **طبقات الشافعيّة الكبرى**: تاج الدين عبد الوهّاب بن علي السُّبكي، تحقيق: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر، ط٢، القاهرة، ١٩٩٢م.
- **العمدة في صناعة الشعر ونقده**: ابن رشيق القيرواني، عني بتصحيحه: محمد بدر النعساني، مطبعة السعادة، مكتبة أمين الخانجي، مصر، ١٩٥٧م.
- **فوات الوفيّات**: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن الكتبي، تحقيق: علي محمد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ٢٠٠٠م.
- **القاموس المحيط**: الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٩٨٧م.
- **الكامل**: أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، تحقيق: د. محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ط٣، بيروت- لبنان، ١٩٩٧م.
- **مجمع الأمثال**: أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت- لبنان، د.ت.

- **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**: صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٤م.
- **معجم البلدان**: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.
- **معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها**: د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، ط٢، بيروت، ٢٠٠٧م.
- **مفاتيح العلوم**: محمد بن أحمد بن يوسف أبو عبد الله الكاتب البلخي الخوارزمي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط٢، بيروت، ٢٠١٤م.
- **من أدب الرحلات**: د. عماد الدين الخليل، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ٢٠٠٦م.
- **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**: أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبيّ، تحقيق: د. محمد عبد الله قاسم، دار القلم، دمشق، ٢٠٢٤م.

الأبحاث والمقالات:

- مقال بعنوان (التشكيل الأسلوبي والمعرفي في شعر علي الفزّاع): أحمد البزور، موقع (عربي ٢١) على الشابكة، ٢٦/ ٦/ ٢٠٢٠م.
- بحث بعنوان (التشكيل المعرفي في شعر ابن الحداد الأندلسي): د. أسامة اختيار، مجلة جامعة دمشق، مج٢٩، العدد (١+٢)، ٢٠١٣م.

* * *